شعراء من أرض عبقر

بقلم
محمد العيد الخطراوي

(١)

منشورات نادى المدينة المنورة الأدبي

شعراء من أرض عبقر

بقلم
محمد العيد الخطراوي

من منشورات نادى المدينة المنورة الأدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب من الكتب الشاملة المتقصية لحياة الشعراء الذين ضمهم بين دفتيه ، أو الدراسة لجميع ما كتبوه من أشعار ، وليس هو من كتب التراجم أيضا ، فإن ذلك يستدعي الكتابة المستأنية والدراسة الطويلة المتريثة وهو جهد لا تتسع له البرامج الإذاعية ولا يفي به التقديم المحكوم بزمان أو مكان . فهذا الكتاب في أساسه عبارة عن ثلاثين حلقة أعددتها لإذاعة الرياض تحت عنوان (شاعر من أرض عبقر) ، وأذيعت عام ١٣٩٥ هـ ، وقوبلت ـ والحمد لله ـ بكثير من الرضا والاستحسان على مستوى الصحف والمجالس الأدبية الخاصة والعامة ، بالإضافة إلى ما كنت ألقاه من إخواني الأدباء من تشجيع شفوي أو بوساطة ما كان يصلني منهم من رسائل . وقد أشار عليّ كثير منهم بإخراج تلك الحلقات في كتاب مقروء يمكن الرجوع

إليه فى كل آن ، بعد سماعه من خلال الأثير . وإزاء هذه الثقة الممنوحة التى لم تخل - بالطبع - من عواطف الود والمجاملة والتشجيع ، وجدت نفسى مدعوّا إلى تلبية الرغبة ، والقيام بالمهمة ، وفى الوقت نفسه أحسست أن الدواعى التى دعتنى إلى القيام بهذا العمل فى أسلوب برنامج إذاعى لا تزال قائمة ، ولعل أهمها جميعا إحساسى بأن الشعر والشعراء فى هذه الديار لم تتح لهم الفرصة التى أتيحت لنظرائهم فى البلاد العربية الأخرى من الشهرة والذيوع ، ولم تهيأ لهم الظروف التى تحسن تقديمهم إلى جمهور القراء تقديما يقربهم من نفوسهم ويجلى محاسنهم ، مع أن إنتاجهم فى الحقيقة قد لا تقل قيمته الفنية عن مستوى أولئك النظراء ، فرأيت من واجبى أن أنهض بجزء من هذه المهمة فى محاولة لتغطية هذا النقص ، ولا أنكر أننى وجدت صعوبة كبيرة لم تكن لتذلل بغير الصبر والإصرار ، ذلك أننى كنت قلما أعثر على مجموعة شعرية كافية لإجلاء

الملامح الفنية لشعر من كتبت عنهم ، وكثيرا ما بدأت الكتابة عن أحدهم ثم اضطررت إلى ترك الموضوع لعدم توافر المصادر ، وأذكر أنه وقع اختياري ذات مرة على شاعر مرموق من ذوي الحيثيات فلم أجد لديّ من شعره غير مقطوعتين قصيرتين . وذلك بالطبع لا يكفى لتكوين فكرة عنه ، فكتبت إليه أستمنحه بعض دواوينه المطبوعة التى لم يسعدنى بها الحظ ، وبعد أيام وصلنى منه خطاب يعتذر فيه عن (المنحة) ويدلنى سامحه الله ـ إلى البحث عنها فى الأسواق ، ورغم سحابة الانكماش النفسى التى أصابتنى تجاه هذا الأسلوب فقد عملت بالنصيحة ، ولكننى ـ والحمد لله ـ لم أظفر لحد الآن من شعره بديوان واحد ، فليعذرنى إذا كنت قد صرفت النظر عنه .

ولئن كان ما بهذا الكتاب لا يدخل تحت حيز الدراسات الوافية فإننى صنته جهدي عن الغثاثة والفسولة ، وابتعدت به قدر ما أستطيع عن الضعف

والفجاجة ، وحرصت أن يكون ذا فائدة وجدوى على وجه من الوجوه ، فقارئه إن شاء الله واقع منه لابد على نظرة فاحصة ورأي صائب وعرض فنى للوحات شعرية فائقة ، إن لم ترق معارج الكمال فإنها لا ترضى بالسفوح ، وحسبي أنها محاولة سامية الغاية شريفة المنزع ، يعز على صاحبها أن يقال عنها : جالت ففالت. والمرءُ على كل حال بين أمرين .

وقد حاولت أن يكون هدفى فيما كتبت : التعريف والتنويه وذكر المحاسن أكثر من ذكر المعايب والمآخذ ، عدا بعض اللمسات النقدية الخفيفة التى كان لا بد منها ، لأننا من جهة فى حاجة إلى إقامة البناء ورفع النماذج ، ولأننا من جهة أخرى ـ كما قال العقاد ـ إذا قلنا : إن فلانا من الناس يملك بستانا وعمارة ، لا يلزمنا بالتالى فى ميزان الصدق أن نقول : ولكنه لا يملك معارض تجارية أو قطيعا من المواشى ؛ إذ حسبنا أننا لم نعدُ الحق فيما ذكرناه .

وللأمانة التاريخية فضلت أن أبقى المواضيع على على صورتها التي كتبت عليها أول مرة وأذيعت بها ، دون حذف أو زيادة ، ولم أتصرف في غير العنوان حيث حل الجمع مكان الإفراد فصار (شعراءُ من أرض عبقر) .

وقد أخرجتها في جزأين هذا أولهما ، ليسهل تناولها وتخف قراءتها على الناس ، لأنني رأيت الأكثرين في عصر السرعة الذي نعيشه ، يميلون في اقتناء الكتب إلى ما خف حمله وصغر حجمه ، وليس لهم صبر على ما كبر أو طال ، فلعلي أكون بهذا قد أديت خدمة أخرى .

وأملي في قرائي الأعزاء - أن يعذروني فيما يصادفهم من بعض الهنات فالنقص من أبرز خصائص الكائنات والكمال لله وحده ،،،

المدينة المنورة في ١٢-٣-١٣٩٨ هـ المؤلف

محمد العيد الخطراوي

التعريف بالبرنامج

أيها المستمعون الكرام ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . هذه هى الحلقة الأولى من برنامجكم الجديد : (شاعر من أرض عبقر) . آمل أن نلتقى فيه على مائدة الثقافة الماتعة والفن الرائع واللفظ المموسق والتصوير العبقري للعواطف الإنسانية النبيلة والفكر الرفيع .

سنقدم لكم فى كل حلقة ـ إن شاء الله ـ شاعرا نتفيأ ظلال شعره ، ونعيش فى رحلة قصيرة بين محاريب وحيه وإلهامه ، نتلمس شخصيته ونستمتع بعرائس فنه ، واخترنا أن يكون هذا الشاعر وليد البيئة ، نجتلى معه محاسنها وننشر مطارفها ، ونجد نكهتها فى أفواهنا وأسماعنا جميعا .

لا نلتزم أن يكون معاصرا حتى لا نحصر أنفسنا فى نطاق ضيق ، بينما المجال رحب والأفق غير محدود. كما أن المعاصرة قد تكون على أعيننا حجابا وتفرض علينا

كثيرا من الحرج . ولكن سنخص المعاصرين بالنصيب الأوفر من البرنامج إن شاء الله .

سنستعرض معا جملة من أشعار الشاعر الذي يقع عليه الاختيار ، ثم نتناول بعض جوانب ذلك الشاعر من الناحية الفنية الخالصة ، ونلمسها برفق يجلو محاسنها ويكشف عن معدنها ، والمعدن الأصيل يزيده جلاءُ الصيرفى أصالة ويؤكد قيمته الحقيقية للآخرين .

وسيكون حديثنا عبارة عن إلمامات سريعة ، فيها رغم السرعة والإيجاز : الإيماضة الكاشفة والإشارة المحدّدة .

ولا مناص لنا من أن نقدم بين يدي البرنامج فى هذه الحلقة مناقشة يسيرة لكلمتى : شعر وعبقرية اللتين يتألف منهما عنوان البرنامج ، ثم نعلل لاختيارنا هذا الاسم ، لاعتقادنا أن ذلك ضرورة لازمة من جهة ، ولإيماننا أن حديثنا معكم فى هذا الموضوع على هذا النحو سوف لا يبتعد بنا عن مضمارنا الأصلى ولا ينأى بنا عن الهدف المرسوم .

كلمة شعر كما ترى : وثيقة الصلة بالشعور ، وهو فعلا كذلك أو ينبغي أن يكون كذلك ، فأي جدوى من شعر ميت لا شعور فيه ، ليس فيه غير كتل من الألفاظ خالية من أي معنى إنسانى أو مضمون فكري رصين . والقدماء على كل حال يعرفونه تعريفا غير مانع من دخول الغير فيه . قالوا :

« هو الكلام الموزون المقفى » . فالشعر عندهم قائم على ركنين أساسيين هما الوزن والقافية . وهذا التعريف فى نظرنا بين النقصان واضح القصور ، لأنه ينطبق على الشعر الأدبى كما ينطبق على المنظومات العلمية ، كألفية ابن مالك فى النحو وألفية العراقى فى مصطلح الحديث وغيرهما مما قصد منه التعليم ، وهى ليست من الشعر فى شيء لأن الشعر هو ما أشعرك وحرك وجدانك ، وهى لا تخاطب الوجدان وإنما تخاطب العقل ، لتنقل إليه أفكارا وحقائق علمية مجردة ، فالعاطفة إذن والتصوير الفنى للأفكار والعواطف هى أهم عناصر

الشعر وإن كانت الموسيقى من أهم دعائمه وأركانه . فالشعر الخالى من العاطفة والخيال ليس بشعر وإن ادعى ذلك أصحابه ، بل هو نظم لا غير . وقد يكون الإنسان بحرا لا ساحل له فى العروض وقواعده وعلله وزحافاته ، ويمتلك قدرة خارقة على النظم ، ومع ذلك لا يكون شاعرا ولو نظم المئات أو الآلاف من الأبيات ، وهكذا كان الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض ناظما لا شاعرا .

ولأهمية التأثير النفسى والتصوير الفنى فى الشعر ، نجد قريشا عندما أخذتهم روعة النسق القرآنى وهزتهم بلاغة آياته ، ينسبونه إلى الشعر ، ويزعم بعضهم أن محمدا شاعرا فقال لهم تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له . . »

ويقول المنفلوطى فى كتابه (العبرات) فى موضوع بعنوان الرحمة : « سأكون هذه المرة شاعرا بلا بحر أو قافية » فماذا يعنى المنفلوطى ؟ إنه يعنى : أن كلامه

سيكون قوي العاطفة متدفق الشعور بارع التصوير عظيم التأثير على النفوس ، وإن خلا من الوزن والقافية .

بل هو فى الواقع كان يكتب نثرا صريحا لا غبار عليه ، فالموسيقى الملائمة والعاطفة الصادقة والخيال الجميل والأفكار الجيدة كلها من خصائص الشعر .

ولكننا قد نتوسع فى تحديد معنى موسيقية الشعر . هل تعنى الوزن والقافية ؟ أي القوالب المعروفة التى حصرها الخليل بن أحمد ، واستقصاها من استعمالات من تقدمه من الشعراء ، والتى عرفناها باسم البحور الشعرية ، أو هى تعنى أي قالب فيه موسيقى ملموسة تميزه عن النثر . ؟ بمعنى أن ما فيه من موسيقى يمنعك من أن تسميه نثرا ، كشعر التفعيلة الذي عرف فى العصر الحديث وانتشر بوجه خاص بين الشعراءالمجددين ومن سار على منوالهم ، كقولنا :

لا لن نقف
أبدا نسير إلى الأمام

يحدو كتائبنا الصغار
حزمٌ وعزمْ من حديد
ومفاخرُ المجد التليد
ودمٌ يسيل من الوريد
من نصلة المستعمرين

* * *

لا . . لن نهاب ولن نميل إلى الخنوع
العُرْبُ لا تلد القطيعْ . . .
ولا الثعالب و الذئاب
ماضٍ توقّد كالشموع
طاقاتُ نور تستمدُّ أَصالة من عهد عاد
من عهد أحمد والخلافة والرشيد
وبنى أمية فى الشآم وطارق الوطن الفقيد ... الخ

أنت ترى أن هذا الكلام يعتمد على موسيقى معينة وعلى تفعيلة خاصة هى متفاعلن ، وهى من تفعيلات البحر الكامل ، هو لم يلتزم بالبحر ، ولكنه التزم

با لتفعيلة يوزعها حسب انسياقه العاطفى وطاقته النفسية، أنت لا تستطيع أن تسميه نثرا ، لأن النثر لا يعتمد على التفعيلة بل ينساب انسيابا ، فماذا تسميه إذن . ؟ لا مفر من احتسابه فى الشعر وإن لم يجر فى نسق بحور الخليل ، لأنه لا قسيم للنثر سوي الشعر ولا ثالث لهما ، فهو شعر متطور الشكل ، فيه كل ما فى الشعر التقليدي من خصائص ومميزات عدا البحر ، نحن معك أيها المستمع الكريم فى رفض الكلام المنقط ، أي تلك السطور التى تناثرت كلماتها وتكاثرت النقط بين ألفاظها لغير ما سبب ، كبراغيث الدكتور محجوب ثابت التى عناها الشاعر أحمد شوقى فى مداعبته له بقوله :

قد اجتمعت جوقةً جوقةً كما رُشَّتِ الأَرضُ بالسمسم

إنها فى الواقع كمجموعات الذباب فى رأس أقرع بعيد عن الطب والأطباء ، اسمحوا لى إن تكلمت عن هذا الكلام المنقط بطريقة تثير السخرية والاشمئزاز ، لأنه شيء دخيل على لغتنا بعيد عن مناخنا .

وقد علّلته الشاعرة العراقية نازك الملائكة فى كتابها قضايا الشعر المعاصر ،وأكدت أنه عنصر طفيلى دخيل على لغتنا جاء من الترجمة الحرفية لما عند الغرب من شعر يوضع عادة عندهم على سطور ، مع نسيان أن لهم قالبهم الخاص فى لغتهم الخاصة ، والغفلة عن اختلاف الوحدة النغمية فى شعر اللغتين ، فهذا الكلام ليس من الشعر فى شىء ، والا لجاز أن نصوغ كتاب الجبر والكيمياء وحتّى الجريدة الإخبارية على هذا المنوال فتصبح كلها شعرا ، وهذا يذكرنا بأبيات قديمة ويعيد إيماننا بها وهى :

الشعر صعب وطويل سُلمُه
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمُهْ
زلت به إلى الحضيض قدمُه
يريد أن يُعرِبه فيُعجمهْ

فالشعر على مقتضى ما قدمنا نوعان : شعر البحر وشعر التفعيلة .

وقسم أحد القدماء الشعراء إلى أربعة فقال :

الشعراءُ فى الوجــود أربَعَهْ
فشاعر يخوض وسط المعمعه
وشاعرٌ يَجْرِي ولا يُجرَى معهْ
وشاعرٌ لا تشتهى أن تَسْمَعَهْ
وشاعر لا تَسْتحى أن تَصفعه

ونرجع لتوضيح الكلمة الثانية التى يقوم عليها اسم البرنامج وهى كلمة عبقر .

يقول الفيروزبادي فى القاموس المحيط عبقر : موضع كثير الجن . وبلدة ثيابها فى غاية الحسن . والعبقري الكامل من كل شيء ، والسيد ، والذي ليس فوقه شيءٌ وضرب من البسط كالعباقري ، وعباقر: ماءُ لبنى فزارة . وجاء فى [جمهرة أنساب العرب] لابن حزم أن بنى عبقر هم فخذ من العرب المعروفين بالأبناء من شمْس ابن معد ، وهم بنو عبقر بن خُويْلد بن جُشم بن عمرو ابن عبْشمْس ، وكانوا أبطالا ، فقُتلوا ليلة منسب

[يوم كان بينهم وبين بنى ضَمرة] ، وبهم ضرب المثل [جِنة عبقر]

وفى تفسير قوله تعالى « متكئين على رفرفٍ خُضْر وعبقريٍّ حسان » يقول القرطبى : عبقريّ : واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عبقر . وقد قيل : إن مفرد عبقري عبقرية ، والعباقر جمع الجمع . والعبقري الطنافس الثخان منها ، وقيل : الزرابي أو البسط أو الديباج ، وقيل : كل ثوب وشّى تسميه العرب عبقريًا . قال أبو عبيد هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى فينسب إليها كل وشي حُبك . قال ذو الرُّمة :

حتى كأَنَّ رياضَ القُف أَلْبسها

من وشي عبقر : تجليل وتنجيد

ويقال : إن عبقر قرية بناحية اليمن فيها بسط منقوشة . وقال ابن الأنباري : إن الأَصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل .

وقال الخليل : « كل جليل فاخر من الرجال والنساء وغيرهم تسميه العرب عبقريا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمر رضى الله عنه (فلم أر عبقريًا من الناس يَفْري فَرْيه) .

قال أبو عمرو بن العلاء : « العبقري هو رئيس القوم وجليلهم » وقال زهير بن أبي سلمى :

بخَيلٍ عليها جِنَّة عبقرية
جديرون يوما أن يَنالوا فيستَعلُوا

وقال الجوهري فى صحاحه : العبقري موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن قال لبيد العامري :

ومن قاد من إخوانهم ونبيِّهمْ
كهولٌ وشبان كجِنَّةِ عبقرِ

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعه وقوته فقالوا : عبقري .

وفى الحديث : إنه كان يسجد على عبقري ، وهو هذه البسط التى فيها الأصباغ والنقوش ، حتى قالوا :

ظُلْم عبقري ، وهذا عبقريٌّ قومه : للرجل القوي فالمعنى العملى للعبقرية إذن يدور فى عمومه على الحذق والمهارة والكمال والحسن فى الناس والأشياء . وربط المحدثون بينها وبين الذكاء المفرط والإحساس الحاد . وراحوا يبحثون عن الصلة بينها وبين الجنون ، فكأنها شفافية عند الإنسان وحدة فى الذكاء ، إن سارت فى ضوابطها كانت عبقرية لتعطى الإبداع والإبتكار ، وإن فقدت الضوابط وسارت على غير هدًى كانت جنونا يعود على صاحبه بالخسارة والوبال .

والعقاد صاحب العبقريات يربط بين العبقرية والإبتكار فيقول فى تحديدها : إنها التميز والتفرد والإبتكار .

والعبقرية فى معناها الأُسطوري تعنى النسبة إلى أرض عبقر ، وهى قرية أو وادٍ كان يسكنه الجن ينسب إليه كل فائق وجليل ، وتصوَروا أن لكل شاعر قرينا من جن عبقر يوحى إليه بالشعر ويلهمه به إلهاما ، وانعكس

هذا الاعتقاد على شعر الشعراء ، فهذا زهير يقول كما قدمنا :

بخَبْـــلٍ عليها جنــةٌ عبقرية

جديرون يوما أن ينالوا فيستعْلوا

ويقــول أيضا :

عليهن فتيـــانٌ كجنَّة عبقـــرٍ

يهزُّون بالأيدي الوشيج المقَوَّمَا

وربطوا بين الشاعر وبين شيطانه ، فجعلوا الشاعر لا ينطق إلا عن هوى شيطانه ولا يحدث إلا بوحيه ، ثم اتسعت هذه الفكرة عندهم حتى عرف هؤلاء الشياطين بأسماء اقترنت بأسماء بعض الشعراء ، وافتخر كل شاعر بقوة شيطانه وإنه رجل قوي الشكيمة ، على حين يجعل شياطين غيره إناثا ضعافا ، قال أبو النجم العجْلي :

إنى وكلُّ شاعرٍ من البشرْ

شيطانُه أُنثى وشيطانى ذكَرْ

وقد سموا من هؤلاءِ الشياطين : الشَّنْفنان والشَّيْصبان ، وزعموا أَنهما رئيسان من آباءِ قبائل الجن . قال حسان بن ثابت :

إذا ما ترعرع فينا الغلامُ
فليس يقالُ له : مَن هُـوَهْ
وإن لم يَسُدْ قبل شدِّ الإزارِ
فذلك فينا الذي لا هُـوَهْ
ولى صاحبٌ من بنى الشَّيصبانِ
فطـورا أَقولُ وطورا هُـوَهْ

وقال آخر :

إنى وإن كنت صغيرَ السـنِّ
وكان فى العـين نُبُوٌّ عنى
فإن شيطانى كبيرُ السنْ

ومن شياطين شعرائهم لاقط بن لاحظ شيطان امرىءُ القيس ، وهَبيد شيطان عَبيد بن الأَبرص ، وهو الذي قيل فيه : من عَبيد لولا هَبيد ، ومنهم

هاذر بن ماذر صاحب النابغة الذبيانى وهو الذي استنبغه ، لأن اسم النابغة زياد ، ولقبوه بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجأة فى الأربعين من عمره .

ومنهم مسْحل صاحب الاعشى وفيه يقول حين هاجاه جهنّام :

دعوت خليلى مسْحلا ودعَوْا له

بجهْنامَ يُدعَى للهجينِ المذمّمِ

ومن فكاهات العرب فى هذا المقام ما ذكره أبو زيد صاحب (جمهرة أشعار العرب) أن الفرزدق أتاه فتى فأنشده :

ومنهمُ عمر المجـوّد نائله

كأنما رأسه طين الخـواتم

فضحك الفرزدق ثم قال له : يا ابن أخى ، إن للشعر شيطانين يُدْعى أحدهما الهوبر والثانى الهَوْجل ، فمن انفرد به الهوجل فسد شعره ، وإنهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت ، فكان الهوبر معك فى أوله والهوجل

فى آخره ثم ما زال فى الفتى حتى عاهده ألا يقول شعرا أبدا .

وذكر المسعودي فى (مروج الذهب) أن من قول الجن :

وقبرُ حرب بمكان قفـرٍ
وليس قُرْب قبرِ حربِ قبرُ

ولعل الذي دعا القدماء إلى الربط بين الشعراء وشياطين عبقر : هو ما رأوه من أن الشاعر إنسان يختلف فى أطواره عن عشرائه ، وينزع بفكره إلى أودية لم يعتادوا الخوض فيها ، وحين رأوا لكلامه فعل السُّلاف وتأثير السحر ، وأنه إن أراد تقبيح الحسن أدخل على النفوس الوهم بقبحه ، وإن شاء تحسين القبيح فصل القول فيه فبان رائعا معجبا ، وجميلا فاتنا ، وأنه إذا شاء أوغر الصدور فثارت فيها نار الحزازات وربما اشتعلت الحروب ، ثم إذا شاء أطفأ تلك النار التى ألهبها ، وأنام هذه الفتنة التى أيقظها ، إلى غير ذلك من القدرات والمواهب التى

منحها الله للشاعر ولم ينعم بها على غيره ، ورأوا أن الشاعر يهيم فى كل واد ويقول مالا يفعل . لما رأوا كل ذلك عزوه إلى قوة خارقة وقدرة غير عادية ، ولا يتوافر ذلك فى نظرهم بالطبع سوى للجن والشياطين ، فمن هنا نشأت هذه الأسطورة ، وهى على كل حال تشهد للشاعر بالقدرة والموهبة وعلو القدْر وبُعد الشأن ، فالعبقرية تُنطقه وتُحْكِم نسج ألفاظه ، والعبقرية تفجر فيه ينابيع الخيال وأفاويق الحكمة :

(ومَنْ يؤْتَ الحكمة فقد أوتىَ خيرا كثيرا) ، أما شوقى فيقول : (أنتمُ الناس أيها الشعراءُ) ولا يمكننا فى الواقع أن نغلو مع شوقى بدافع من الانفعال فنحصر الإنسانية فى الشعراء ، ونطالب الناس أن يثبتوا انسانيتهم من هذا الطريق ، فذلك تكليف بما لا يطاق ، ولكننا نرجو من الإنسان إذا لم يكن شاعرا أن يكون ممن يهزهم الشعر ويطربهم ويؤثر فيهم ، فقد عُرفت الأُمة العربية بين الأُمم باسم الأُمة الشاعرة ، فمن لا يقول الشعر أو يهتز له فلتبْكِ عليه البواكى .

ابن عثيمين

شاعرنا ابن عيثمين رائد من رواد الشعر فى هذه الديار ، فى أيام اربدّت سحنتها ، وأمحلت فيها ديار تميم وبكر وتغلب وعبس وذبيان من شاعر واحد ذي بال ، يصدح بالشعر قويا جزلا كأيام بَعُد بها العهد ، ويتغنى بالشيح والقيصوم والخزامى ، ويصف الرحلة فى صحاريها الواسعة المترامية الأطراف ، وينشر أمجادها ومفاخرها ، ويعيد لها مكانتها السامقة الفروع المكينة الأساس فى عالم الشعر والشعراء ، ويذكر الناس بما كان لها من ماض مجيد ، سيظل على مدى الأزمان ومرور الأيام منائر هادية ، وشعلا تضيء دروب الفن والأصالة والإبداع . ففى هذه الديار التى ظهر فيها شاعرنا الكبير الرائد محمد بن عبد الله بن عثيمين ولد الشعر العربى الجاهلى ، وحبا وترعرع ، ثم اكتهل واشتد عوده ، وطاول الحقب وعوامل العدم والفناء . فهى مهاده ومسرح آماله ، وهى مربعه ومناط خياله وأفكاره ومعانيه ،

فكل ذرة فى هذه الأرض تحمل من ماضى الشعر العربى سمة من سماته ، وهمسة من همساته ، ونجوى من نجاويه العابقة بالحب والحنين ، أو المضطرمة بالصراع والحرب والطموح . فظهور ابن عثيمين كان خيرا كله على الشعر العربى بصفة عامة ، وعلى الشعر فى هذه الديار بصفة خاصة ، أعاد للشعر جزالته وقوته ورصانته ، بعد أن مرت به عصور طويلة ، من الضعف والتدهور والجمود . وقد كان ذلك الجمود الشعري جُزءاً من الجمود العام الذي أصاب المنطقة كلها ، بسبب تفتت الوحدة وفقدان الأمن وانتشار الجهالة وتفرق الكلمة وتزعزع الكيان العام ، وولد ابن عثيمين سنة ١٢٦٠ للهجرة ، وهى فترة انحطاط عام ، وبخاصة فى نجد ، وكأنما الصحوة الأدبية الحقة فيها كانت مرتبطة بأعياد نجد وفتوحات المغفور له جلالة الملك عبد العزيز ، حيث عادت العزة للنفوس ، فسار التاريخ فى طريق الوحدة والمحبة والإخاء وجمع الكلمة ولمّ الشتات ،

فقد كان ابن عثيمين ينظم شعره فى أوائل حياته بالشعر النبطى ، وأبرز قصيدة تذكر له ، هى التى ألقاها بين يدي المغفور له الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن بمناسبة استيلائه على إقليم الاحساء سنة ١٣٣١ هـ. وهى :

العزُّ والمجد فى الهنديّة القُضُبِ
لا فى الرسائل والتنميق للخطب
تقضى المواضى فيمْضى حكْمها أمماً
إنْ خالج الشكُّ رأي الحاذقِ الأرِب
وليس يبنى العلا إلاّ ندًى ووغى
هما المعارج للأسنى من الرُّتب
ومشمعِلٍّ أخو عــزمٍ يشيّعــــه
قلبٌ صرومٌ إذا ما همَّ لم يهـب
ذاك الإمام الذي كادتْ عزائمهُ ...
تسمو به فوق هامِ النّسر والقُطُب
عبدُ العزيز الذي ذلّت لِسطْوتِــه
شُوسُ الجبابرِ من عُجْمٍ ومن عرب

ليث الليوثِ أخو الهيجاءِ، مُسعِرُها
السيِّدُ المنجبُ ابنُ السادةِ النُّجُب
قومٌ همو زينةُ الدنيا وبهجتُهـــا
وهُمْ لها عُمُدٌ مشدودةُ الطُّنُـــب
لكنَّ شمْس ملوكِ الأَرض قاطبـــةً
عبدُ العزيز بلا مينٍ ولا كذب
قاد المقانِب يكسو الجوَّ عِثْيرُها
سماءَ مُرْتَكَمٍ من نقْعٍ مُرْتَكَب
حتى إذا وردتْ ماءَ الصَّراةِ وقدْ
صارتْ لواحِق أَقْرابٍ من السَّغب
قال : النزالُ لنا فى الحرْبِ شنْشنةٌ
نمشى إليها ولو جِثْياً على الرُّكبِ
فسار من نفسه فى جحْفلٍ حرِدٍ
وسار من جيشــه فى عسكرٍ لجِب

حتى تسوَّر حيطـانا وأبنيـــةً
لولا القضاءُ لمـا أُدرِكْن بالسَّبب

فبيَّت القوم صرْعى خَمْـرَ نومِهمُ
وآخرين سُكارى بابْنــةِ العِنب

فى ليلة شاب قبل الصبح مَفْرِقُها
لو كان تعقِل لم تملك من الرُّعب

الله أكبر هذا الفتح قد فتِحَــت
به من الله أبوابٌ بلا حجـــب

فتحٌ تُؤَرَّج هذا الكونَ نفْحتُــه
ويُلبِسُ الأَرض زيَّ المارِحِ الطَّرِب

يا أيها الملك الميمــونُ طائــرُهُ
اسمع هُديت مقال الناصحِ الحَدِب

اجعلْ مُشيرَك فى أمرٍ تحاولُــه
مهذَّب الرأْي ذا علمٍ وذا أدب

وقدِّمِ الشرع ثم السيف إنهمـا
قِوامُ ذا الخَلْقِ فى بدْءٍ وفى عقب

واحذرْ أناسا أصاروا العلم مدرجةً
لِما يُرجّون من جاهٍ ومن نشب

ثم الصـلاةُ وتسليم الإلٰهِ على
من خصّهُ الله بالأَسنى من الكُتُب

والآل والصحْب ما نامت مطوَّقةُ
وما حدا الرعْد بالْهامى من السُّحب

هذه البائية تعطينا فكرة واضحة عن الا فاق التى حلق فى سمائها هذا الشاعر الرائد ، فالقصيدة مدح للعاهل العظيم عبد العزيز آل سعود ، وتسجيلٌ ليوم له ما بعده فى ضم الجناح الشرقى لهذه المملكة الفتية ، فهو شعر يخوض المعارك ويغنى للكفاح ، ويؤمن بالعقيدة الإسلامية الصافية ، ويشد على يد من يحقق البطولات من أجل بناءِ الكيان الكبير وتوحيد أجزاء المملكة المتناثرة . وهى من الناحية الفنية معارضة لبائية

أبي تمام الشهيرة فى فتح عمورية ومدح الخليفة العباسى المعتصم ، التى مطلعها :

السيفُ أصدق إنباءً من الكتُب
في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

والاشتراك بين القصيدتين واضح فى البحر والقافية والغرض ، وهو ما نؤثر تسميته بالمعارضة المطلقة ، إذ أن التشابه بين القصيدتين حصل فى القافية والوزن والغرض . وتقابلها المعارضة المقيدة وهى التى تفقد ناحية من النواحى الثلاث السالفة الذكر ، وقد تقفى ابن عثيمين أبا تمام حتى فى بعض المعانى والأفكار . فإذا قال أبو تمام :

لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها فى جحفلٍ لجِب

يقول ابن عيثمين :

فسار من نفسه فى جحفلٍ حرِدٍ
وسار من جيشه فى جحفل لجب

وإذا قال أبو تمام :

فتحٌ تفتّح أبواب السماء لــه
وتظهرُ الأرض فى أثوابها القشب

يقول ابن عيشمين :

الله أكبر هذا الفتح قد فتِحتْ
به من الله أبوابٌ بلا حجُــب

وإذا قال أبو تمام :

رمى بك الله بُرْجيْها فهــدّمها
ولوْ رمى بك غيرُ الله لم تُصِب

يقول ابن عيشمين :

حتى تسوّر حيطــانا وأبنيـــةً
لولا القضاءُ لمــا أُدْرِكن بالسّبب

ومع أن ظروف ابن عيشمين الأدبية وشدة إعجابه بأبى تمام لم تتح له الفرصة فى التفوق . فإن له فضلا آخر لا يمكن أن ينساه مؤرخو الأدب فى هذه الديار ، ذلك هو توجيهه الأنظار إلى النماذج الشعرية العباسية

الرفيعة التي يجب أن تحتذى ، وصرفه النظر عن نماذج عصور التخلف والإنحطاط ، وبذلك أعاد للكلمة الشعرية صولتها ، وللمعانى عزتها وقيمتها ، كما نجح فى إضفاء الجو الملحمى على بطله القائد ، وختم القصيدة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو طابع عرف به فى جميع أشعاره. ولا غرابة فى ذلك، فهو شيخ منذ نعومة أظفاره ، ارتوى من مناهل الشعر الدينى ، واغتذى بلبانه ، وتخرج على أيدي القضاة والعلماء ، كالعلامة الشيخ عبد الله بن محمد الخرجى ، قاضى السلمية مسقط رأس الشاعر ، وهى من أعمال الخرْج ، ثم الشيخ أحمد الرجبانى والشيخ محمد بن عبد العزيز ابن مانع وغيرهم .

وشعر ابن عثيمين مجموع فى ديوان صقيل طبع تحت عنوان [العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين] .

وقد حدد جامع الديوان الأستاذ سعد بن عبدالعزيز بن رويشد بعض الدوافع التى دفعته إلى جمعه والاهتمام

بطبعه وإخراجه للناس، فقال : دفعنى إلى جمع هذا الشعر أمور :

أولها : المحافظة على أثر من الآثار الأدبية التى تمثل شعر فترة من الفترات فى هذه البلاد التى كانت مهدا للشعر العربى ، وموطنا لفحول الشعراء فى العهد الجاهلى ، وصدر الإسلام .

ثانيهما : أن هذا الشاعر كان فى عهده شاعر نجد على الاطلاق ، وكانت منزلته بين الأدباءِ لا تساميها منزلة ، فمن العار على أبناءِ هذه البلاد أن يضيع شعر مثل ذلك الشاعر ، وألاَّ يتصدى أحد لجمعه ونشره .

ثالثهما : أن شعره يعد سجلا وافيا لحوادث عصره ، وبخاصة غزوات صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل فيصل ، أسكنه الله فسيح جناته ، تلك الغزوات التى أعز الله بها المسلمين ووحد شملهم وألف بين قلوبهم ، وكون منهم مملكة مترامية الأطراف ، كثيرة السكان ، أصبحت مرهوبة الجانب عزيزة

السلطان ، تحتل بين ممالك العالم منزلة رفيعة ، فلا بدع أن يُؤتَى هذا الشعر من العناية ما يستحقه .

وإذا كانت البائية التي أوردناها لهذا الشاعر كشفت لنا عن مقدار تعلقه بالنماذج العباسية فإن فى ديوانه ما يدل على أن تعلقه بالنماذج الجاهلية أقوى وأشد وضوحا ، فهو يبدأ قصائده بالغزل ، ويصف أحيانا الرحلة إلى الممدوح ، أما غزله فقد كان صناعيا ، وأما حديثه عن الرحلة فقد يكون فيه كثيرٌ من الصدق لأنه انعكاس لواقع حياته ، فهو رجل قد قضى الشطر الأول من حياته فى رحلات متواصلة بين قَطر وعُمان والبحرين ، فلا غرابة أن يكون هذا الجانب من حياته معينا يغترف منه ، بجانب نزوعه إلى تقليد القدماء وإعجابه العام بأسلوبهم وطريقة نسجهم للقصيد ، ومن أمثلة مقدماته الغزلية قوله :

وقفتُ على دار لميَّـــةَ غيَّـرَتْ
معالمَها هُـوجُ الرياحِ النَّواسفُ

فأسْبلتِ العينـــانِ دمعا كأنــه
جُمان وَهَى من سلــكه متــرادفُ
أُسائلُهــا عن فَرْط ما بى وإنــنى
بِعُجــمةِ أَحجــارِ الديار لَعارف
كعهدي بها فيها أَوانسُ كالدُّمَى
غــرائرُ ، عما لا يحِلُّ صوادف
إِذا ما سحَبْنَ الأَتْحِمىَّ تمايلــتْ
غصونُ النَّقا مالت بهنَّ الرَّوادف
وفيهــن مِقْــلاقُ الوشاحِ كأَنها
قضيبٌ إِذا ماسَتْ من الْبانِ وارف
أَلا ليتَ شعْري أَينَ منى مَــزارُها
وقد حالتِ الصُّمَّانُ دونى وواصِف
أَظلُّ نهاري أَنكُتُ الأَرض واجمًــا
وفى كبدي بالليل تُحْمَى المراصف
وأَجْهَدُ يوم البيْن أَن يَظْهر الْهوَى
وقد أَعلنتْه الســاجماتُ الذَّوارف

وإني وإن كانت إلى الغَـوْر نيتي
لَفِي الرَّبْرَب النجْديِّ للقلبِ شاغف

أقول لركْبٍ يَمَّمُـوا قلّة الحمى
على شَدْ قَمِيَّاتٍ طَوتْها النَّتائف

قفوا حدِّثونى عن أجارِعِ رامـةٍ
عسى انبجسَتْ فيها السحابُ العواطف

خليليَّ ودّعتُ التصـابى وقُوّضتْ
مآربُ لى فى ربْعِهـا ومواقف

وأذَّنَ صبحُ الشيب فى ليل لمَّتى
ففِئتُ ولكنى على الليل آسف

وباعد مَن كنا نُسَرُّ بِقُـربه
وآخَـرُ مطـويٌّ عليـه اللفائفُ

رجالٌ وأوقاتٌ وشَـرْخ شبيبـةٍ
مضوْا ، وزمانٌ بالحبيب مُساعف

فقلْ ما تشَا فى مهجةٍ لم تصدّعتْ
بلوعـة موتـورٍ بمـا أنا واصف

جعلتُ سميري حين عز مسامري
دفاتر أملتهـا القــرونُ السوالف

فَطـوْرا أناجى كلَّ حَبْــرٍ موفّق
إذا ما دعا لبَّتْ دُعاه المعــارف

وطورا كأنى مَعْ زهيــرٍ وجَرْول
وطوراً ينــاجينى ملوكٌ غطــارف

وهذا النص علاوة على ما فيه من غزل يسير على نهج الأقدمين ويترسم خطاهم ، فإنه يكشف فى الأبيات الأخيرة عن مصدر هام من مصادر ثقافة الشاعر ، وهى القرون السوالف ، ما بين علم دينى يقرؤه فى كتاب حبْرٍ عالم تقى تنقاد له المعارف والعلوم ، وبين شعر شعراء كبار جاهليين ومخضرمين كزهير بن أبى سلمى وجرول (الحطيئة) .

ثم انظر أية جزالة لفظية وأية ثقافة لغوية مكينة يمتلك ناصيتها هذا الشاعر ، فبعض ألفاظه لا يسهل

فهمها للقارئ العادي ، ولعل هذه الظاهرة فى شعره راجعة لأمرين .

ثقافته اللغوية الواسعة ثم تعمّده الارتفاع بلغة الشعر عن الغثاثه التى وصلت إليها فى شعر سابقيه .

وإذا كنا فى النصين السابقين قد استعرضنا غرضين من شعر ابن عثيمين ، هما المديح والغزل ، فإنه قد بقى من أغراض شعره الرئيسية غرض آخر هو الرثاءُ ، ومن المناسب أن نذكر أنه لم يُعلَم عنه طيلة أيام حياته أنه حاول ذم أحد بشعره أو هجاه ، لأن النفوس المؤمنة العظيمة يربأ بها شرفها أن تغوص فى وحل السب والمهاترات والهجاء .

قال أحد أصدقائه : يا أبا عبد الله : قد سمعنا لك شعراً فى كل أبواب الشعر سوى باب الهجاء ، فلِمَ لَمْ نسمع لك شعراً فيه ؟

فقال : الحمد لله إنى لم أهج أحدا قط مهما بلغ بى من الإساءة ، وهل تظن أننى تركت الهجاء عجزا . ؟ كلا ..

إن الشعر آلة وأداة يصرفها الشاعر كيف شاء من فنون الشعر وأغراضه ، وهل من العسير على من يستطيع أن يقول : عافاك الله ، أن يقول أخزاك الله ؟

إذن هو الترفع يمنعه من هجاء الناس ، والخلق القويم الذي فطر عليه ، وإنه لشرف من الله عظيم .

أما شعر الرثاء فمن أهمه قوله يرثى الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ قاسم آل ثاني :

هو الدهر لا يُصغى إلى من يعاتبُهْ
ولو عظُمت هِنّاتُه ومآربُهْ

له كلَّ يوم غارةٌ بعد غارةٍ
بها يترك النادي ترِنّ نوادبُهْ

ويعتامُ منا كلَّ أبلجَ ماجدٍ
كما اعتام عِقدَ الجوهرِ الفرْدِ جالبُه

رزئنا حليفَ المكرماتِ ابنْ قاسمٍ
جميلَ المحيَّا طاهرات مثالبُه

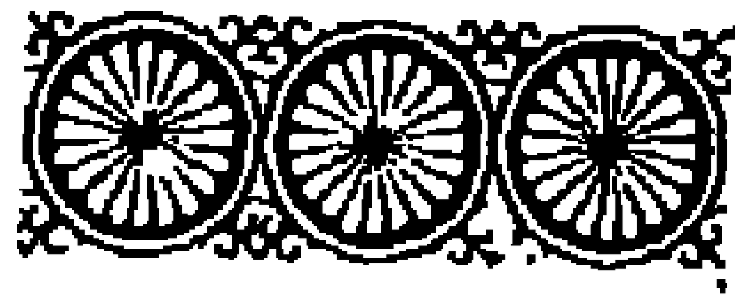
سما فامْتَطَى شُمَّ المعالى بعزْمِهِ
وأصلٍ كريم أنجَبَتْه مناسبُه

أناخَ به مَنْ ليس يُدْفع بالقنا
ولا بحديدِ الهند تسطو مضاربُه

سقاه من الغفران والعفو وابلٌ
تزف إليه بالرضاء سحائبُه

وبعد فإن ابن عثيمين شاعر كلاسيكى اتباعى ، يترسم خطى الأسلاف ، ويحترم اللغة لفظا وقواعد واستعمالا ، ويقصد إلى الحقائق العامة وإحياء المجد اللغوي للشعر . يدل شعره على ثقافة واسعة بعلوم اللغة وإحاطة واعية بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . ولذلك كثر استشهاده بالآيات والأحاديث ، وهو ضرب من التعبير معروف عند البلاغيين باسم الاقتباس ، كما كان على معرفة بأخبار العرب فى الجاهلية والإسلام ، مع أنه عاش فى عهد قد ضرب الجهل فيه أطنابه ، وبخاصة فى تلك الجهات التى تقلب

بين ربوعها ، وليس من المبالغة القول بأنه لو قُدِّر لهذا الشاعر أن ينال طرفا من ألوان المعرفة الحديثة لكان له شأن عظيم ومكانة أعلى . وإن شاعرا يقبع فى ديار منعزلة عن العالم الخارجى ثم ينظم هذا الشعر الجيد المحكم الصنعة لهو شاعر فذ فى جودة القريحة وخصوبة الشاعرية وغزارة الفهم فرحمه الله وغفر له .



ابن بليهد

ابن بليهد ذو صيت ذائع وشهرة واسعة عند المهتمين بآثار بلاد العرب ، لدرجة غطت على عرفانه كشاعر كبير له ديوان مطبوع يزيد عن المائتين وخمسين صفحة من الحجم المتوسط ، يضم نيفا وسبعين قصيدة ومجموعة من الشعر النبطى ، مع أنه لم يكتب كتابه الشهير الذي سماه « صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار » إلا خدمة للشعر والشعراء ، وإيمانا منه بأنه لا يمكن عزل الشعر عن بيئته أو قائله بحال ، فاهتمامه بآثار العرب كان نابعا من حبه للشعر واحتفائه به وتعلقه بمزاولته دراسة وممارسة وتأليفا ، لأنه تحقيق للآثار التى ورد ذكرها فى الأشعار القديمة التى اعتادت أكثر كتب الأدب عندما تمر بها أن تقول عنها : موضع بالجزيرة العربية ، وإذا حاولت الدقة قليلا قالت : موضع بالحجاز أو موضع بنجد أو باليمامة ،وتتخبط فى تحديدها خبط عشواء حتى جاء ابن فلهيد فأجلى غوامضها

وأزال عنها ستار النسيان ، وحدد أماكنها تحديدا نال رضا أكثر الباحثين ، وفاز بالسبق والريادة ، وقد أشار إلى بعض دوافع تأليفه لهذا الكتاب فى المقدمة فقال ما ملخصه :

إن جلالة الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز رحمه الله إبان توليه وزارة الخارجية أثناء حضوره مؤتمر سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥م ، التقت به نخبة من أدباء المهجر لاستقباله والسلام عليه ، وأبدوا لسموه آنذاك ما يشعرون به من حاجة ملحة لمعرفة ما ورد فى الأشعار الجاهلية وبخاصة المعلقات من أماكن تعتبر مناخا لذلك الشعر ، وبيئة جرت فيها أحداثه ، وتضمخت بها أبياته ، وسرحت خيالاته ، فانتدب سموه الشاعر ابن بليهد لمكانته الأدبية لتحقيق هذا الأمل الذي داعب أخلاد أولئك المهاجرين ، وكان يداعب قبلهم همة كل باحث قارئ للشعر الجاهلى ، فقام بالمهمة التى نيطت به ، وألف هذا الكتاب استجابة لأميره المفكر ، الذي لم يترك بابا فيه نفع للعرب

والمسلمين إلا طرقه وأكد عليه ، وندب له ذوي الخبرات والتخصص . كان ذلك منه قبل أن يتولى عرش البلاد ، فلما تولاه رأينا منه ما رأينا مما لا يحتاج منا إلى شرح أو تطويل ، وفى الوقت نفسه صادف ذلك العمل أيضا رغبة ذاتية عند شاعرنا الكبير ، ومن هنا انطلق يبحث وينقب ويستقصى الحقائق من المراجع ويطبقها على الواقع ، مستعينا فى ذلك بجميع الجهود ، باذلا من أجل ذلك كثيرا من وقته ونور عينيه ، حتى أخرجه للناس مكتملا فيه كثير من النضج والدقة ، وغدا مرجعا فى بابه ، حجة فى موضوعه بين أهل العلم .

أما ديوانه الشعري فقد اختار له اسم (ابتسامات الأيام فى انتصارات الإمام) وقد كتب إهداءه إلى الشاعر (محروم) سمو الأمير عبد الله الفيصل .

والمتصفح لهذا الديوان يجده فعلا كما وصفه صاحبه صورة طبق الأصل للحياة فى مطلع العهد السعودي الزاهر . حاول أن يواكب فيه أحداث البلاد ويصورها بأمانة ،

ويتغنى ببطولة إمامه الذي رأى فيه البطل المنقذ للأمة من ضلالتها ، المعيد لها كرامتها ، والذي قادها من نصر إلى نصر ، وسما بها إلى ذرى المعالى وقمم المجد .

فشعر الديوان مديح دافعه الإعجاب بالبطولة والأبطال ، ورثاء باعثه الوفاء والإخلاص ، ثم بعض المقطوعات المتفرقة .

وقد بدأ محمد بن عبد الله بن بليهد حياته الشعرية بالشعر النبطى ، فقد كانت البلاد إذاك - كما أشار فى المقدمة - لا تزال فى عزلة عن العالم وما جد فيه من ثقافات وعلوم ، ولم تتهيأ الظروف لإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات كما هو عليه الحال الآن ، بل إن الدراسة إنْ وجدت كانت تقوم فى الغالب على الكتاتيب والدروس المسجدية المحدودة ، ولكن الشعر النبطى كان يقوله الناس على السليقة ، وينظمونه على السجية ، وينشدونه فى مجالسهم ، فكان ابن بليهد يقصد تلك المجالس ويتدرب فيها على نظم الشعر ومعاناة الأوزان ،

حتى إذا تم له ما يريد فى وقت مبكر أسهم فيها بنصيب كبير .

يقول ابن بليهد : ولا يغيب عن ذهنى أننى ساجلت ذات مرة الشاعر النبطى الكبير المرحوم (السكران) فقلت فى مساجلتى له من نوع يسميه العامة من أهل نجد (الغَطْو) لأن معناه مغطًّى لا يكشف إلا بعد طول تفكير ،قلت ملغزا فى نوع من السُّرُج كان يستعمل فى أوائل القرن الرابع عشر الهجري :

وِش لُونْ عُودٍ توكَّلْنا على اللهْ شايْلِنْ عُودْ
ما هُوبْ من والدِيه وشالهْ الله لا يِثيبــةْ
العودْ الأَسفلْ له أَربعْ قايماتٍ كِلِّهــنْ سُود
وما ياقِفْ إلاَّ على ساقٍ فِريدٍ يرْتكى به

فقال السكران من فوره :

هذا سراج الدُّجا تقبِسْ عليه النــارْ بِوقودْ
من فُوقْ راسهْ ولالهْ متُــونْ ولا تِريبَـــهْ

ورغم أنه استقام له الشعر العربى الفصيح وعموده وأتى فيه بأشعار حسان معدودة ، إلا أن هذه النشأة النبطية تركت فيه آثارها ، فأصبح من الداعين إلى الاهتمام بالشعر النبطى ، وهو شعر محلى يتخذ اللهجات المحلية وسيلة للتعبير ويتجانف الفصحى ، إما عن عجز وعدم مقدرة ، وإما عن رأي خاص . وقد أثر هذا الاتجاه البليهدي على كثير من ناشئة الشباب الذين غدوا الآن من الأدباء المعدودين ، والذين تسلموا راية الشعر والأدب فى أيامنا هذه ، فاهتموا بالشعر النبطى أي اهتمام ، وكرسوا له جهودا تحسده عليها اللغة الأم وعاشقوها .

ومن شعره الفصيح فى الملك عبد العزيز بمناسبة وقعة تربة عام ١٣٣٧ هـ :

تحمَّلْ هداك اللهُ منى رسالةً

إلى الملك السامى رفيعِ المناقبِ

إمامٌ أقام المشرفيّةَ والقنــا . .
يقاتل عن نهْج الهدى كلَّ ناكب
إمامٌ به الدينُ الحنيفيُّ قد عَــلا
وأشرق منه النور فى كلّ جانب
هنيئا لك العزُّ المؤثّل قــد سما
يبلّغك العَلْياءَ فوق الكواكب
ففيه لنا عــزٌّ ومجدٌ ورفعـــة
به نَكسبُ العلياءَ عنــد التخاطب
وإنَّ بـــه للعالميــن مكارمــا
بإنصاف مطلوبٍ وخذلانِ طالب
قريبٌ من التقوى بعيدٌ عن الخنَى
نَهَى النفسَ عن فعل الرَّدَي والمعائب
فيا رائما فى المجـدِ نيْلَ خصــالِه
رُويَدَك فاقصِرْ عن أمانٍ كواذب
وكان به فى الخاليات مفاخـــرٌ
مؤثّلةٌ يأْتى بهــا كلُّ خاطب

له نسب ينمى لأعلى ربيعـــة
إذا ذُكِر الأنسابُ عن كل ناسب
قُــرومٌ صناديدٌ كــرامٌ أماثــلٌ
سما مجدُهمْ فوق النجوم الثواقب
فأنت إمامُ المسلميــن حميتهــمْ
من الساحل الشامِى إلى سد مارب
وأكرِمْ حماةَ الدين واذكرْ فعالهم
ونزّلهمُ فى الحبِّ مثل الأقــارب
وكن شاكرا لله فى كل حالــةٍ
ليكفيَك المولى جميعَ النوائب
صلاة وتسليما على خير مُرسَــل
نبيٍّ زكيٍّ من لؤيِّ بن غالب
مع الآل والأصحاب ما هبّتِ الصَّبا
وما انهلَّ وَدْقٌ من خلال السحائب

هذا بالطبع جزء من القصيدة وليست كلها . وأنت تلحظ معى أن قوالب ابن بليهد وتعابيره وأخيلته

اتباعية تقليدية ليس فيها أية سمة للتجديد ، فهو يقلد أصحاب الشعر النبطى وشعراء العصر العثمانى فى اختتام القصيدة بالصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى قوله :

فيا رائما فى المجد نيلَ خصالـه
رويدَك فاقصِرْ عن أمانٍ كواذب

يقلد أبا تمام فى مدحه لعبد الله بن طاهر حين يقول:

فيا أيها الراجى ليُدرِك شأْوَهُ
تزحزحْ قصيًّا ، أسوأُ الظنِّ كاذبُهْ

وفى البيت عامل فعل الأَمر الرباعى (أقصر) الذي كان عليه أن يهمزه : معاملة الفعل الثلاثى فلم يهمزه . إلا أن شعره مع ذلك خلا من التعقيدات اللغوية التى عرف به شعر ابن عيثمين الذي تحدثنا عنه فى كلمة سابقة ، وذلك راجع لسببين فيما يبدو ، أحدهما أن تقليد ابن بليهد كان منصبا على الشعراء العباسيين كأبى تمام والبحتري ، وهما شاعران رقيقان ليس فى

شعرهما ألفاظ صعبة كالجاهليين ، وثانيهما أن تفاعل ابن بليهد مع البيئات الأدبية المعاصرة كان أوسع ، وذلك مما هذب من لغته وفصّح ألفاظه ، وقد لا يكون السبب الأول مسلما على الإطلاق ، لأننا نجده يبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال أحيانا كقوله :

عفـــا رسمُ الديار فلا يُـــرامُ
لكل النازلين بهـــا مقـــام
تُعفّيها الروامسُ ساحبـــــــات
عليها الذيلَ وانسكبَ الغمـــام
كأن الحىَّ ما حلّـــوا ربـــاها
ولم تُضرَبْ بجانبها الخيـــام
إذا حلَّ التشتُّت بعضَ يــــوم
من الدنيـــا تقطَّعتِ الرِّمـــام

ولكنه وإن قلد الجاهليين فى هذه البدايات ، فإنه استطاع أن ينأى بلغة شعره عن الإغراب والتعقيد ، وهذه فضيلة أدبية تحمد له .

ومما يدل على اهتمامه بشعر أبي تمام وإعجابه به قوله من قصيدة يمدح بها جلالة الملك الشهيد الراحل :

وقال قـولا أبو تمام مطلَعُـــه
السيفُ ينشيءُ ما لا تنشيءُ الكتبُ
فإن باب العــلا نقْعٌ له قتَــم
أَوِ القنا والظُّبا والنبْــعُ والغَرَبُ
بِيضُ الكتائب إنْ ثارت لها رهَجٌ
بالصافنات التي في خَلْقِها قَبَب
تدكُّ هامَ الأَعادي في سنابكهـا
سيان إنْ بعُدوا دارا وإن قَرُبــوا
إن كنتَ تأْمرنا فالخيلُ مُسْرَجةٌ
لأَن طاعتكمْ في أمرِكمْ تجِب
انهضْ تجِدْ صُبُراً في كل معركةٍ
كأَنهم من حياض الموت قد شرِبوا

وقال في مقْدم الملك عبد العزيز إلى الحجاز عام ١٣٥٤ هـ ، والبلاد موحدة موطدة الأَركان ، تستقبل

مليكها بالفرحة وتلقاهبالشوق والحب والولاء ، قال .

لك الطائرُ الميمونُ من متقــدَّمِ
بيــوم حَرامٍ فى بلاد محرَّمِ
وقابلَك السَّعد الذي لاح نُـــوره
أمامك فى نجد وفى كلِّ موســم
طلعتَ بحمد الله يا خيرَ طالع
علينا فأهلا بالعُلى والتكــرُّمِ
فلما استقرَّتْ فى العقيــق ركابُه
من البلد النائى إلى خير مَقدم
وألقى عصا التَّسيار ثم تتابعتْ
إليــه الملا من زائــر ومسلِّم
هنيئــا لسكان الأَباطــح كلِّها
جميعا وأهلِ المشْعَرَيْنِ وزمزم
برؤية ميمــون النقيبةِ ماجــدٍ
فقلتُ لها قرّتْ عيونُكِ واسْلَم

وهو يختمها كعادته أيضا بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

وصلّ على المبعوث صفـوةِ آدم
وأصحابِه أهلِ العـلى والتكرّم

وفى سنة ١٣٤٥ هـ عين الملك عبد العزيز نجله البطل الهمام سمو الأمير فيصل نائبا له عن الحجاز ، فصنع الشاعر قصيدة بهذه المناسبة شجّر فيها اسمه ، بحيث يكون إذا ضممت الحروف الأولى من الأبيات إلى بعضها كونت اسم فيصل بن عبد العزيز ، وهذه الطريقة كما يقول ابن بليهد أخذها من شعراء الحجاز ، والأبيات:هى

فتى السعدِ بادٍ والعيـونُ تراقبُهْ
ولاحت على أُفْقِ الحجاز كواكبُهْ
يبارينَ مَنْ نال المكارمَ والعـلا
وقد عُرِفتْ فى العالمين مناقبُـه
صبا نجْدَ هُبّى فى الحجاز فإنـه
على أهله أمنٌ ، وطابتْ مشاربُه

لعمري لقد نال الحجازُ بفيصــل
ومقْدمه أُنْســا تتم مآربــه
أقول لأَصحابى وقد باين الكــرى
مآقِينَا والليلُ داجٍ غياهبُه :
بدا الطالعُ الميمون من آل فيصل
همامٌ تسامتْ فى نزارٍ مناسبه
نماه إلى الأَصل الأَثيل الذي سما
أَبوه ومجد ثابتاتٌ جوانبــه
على خيــله نصــرٌ من الله لائح
وفى كل أَرض مر قلاتٌ ركائبه
بها يقطع الفجّ البعيد إلى العــدا
إذا اخروّطَت بالسالكين سبائبه
دها بِمُلمَّاتِ البَــلا كلَّ مجــرم
وكلَّ صديق جلّلتْــه مواهبُه
أقام منارَ الحق بعــد اندراســه
وتُسعِــده أبنــاؤه وكتائبــه

لقد قطعــوا للمجد كلَّ مفازة
من الأَرض أَو فجًّا تَنادَى ثعالبه
على فيصل من والديه ملامــح
تناجيـــه : اصعَدْ للعلى وتخاطبُه
زها بمحياه الحجازُ وقد بــدا
عليه ، وفاض البحرُ خُضْرا غواربه
يسرّ الأَدانى ، والأَعادي يضــرّها
إذا قُضِيَتْ أَوطــارُهُ ومآربه
زمان به طاب الحجــازُ لأَهــله
وعيشُهُمُ رغدا إذا دام صاحبه

ورغم توفيق الشاعر هنا من حيث رقة الأَبيات وتفاؤله بصعود نجم الفيصل الفقيد ، وقراءته معالم السؤدد والطموح عليه فى قوله :

على فيصل من والديه ملامــحٌ
تناجيـــه : اصعَدْ للعلى وتخاطبه

أقول برغم ذلك فإن فى تشجيره خطأً املائيا ، لأنه وضع الألف فى كلمة ابن ، والقاعدة أن الألف إذا وردت بين علمين حذفت ، وعلى هذا فلا مكان من الناحية الإملائية للبيت الخامس .

وابن بلهيد من الشعراء القلائل الذين رثوا زوجاتهم وهو موقف يدل على الوفاء والإخلاص ، وينم على أحاسيس نبيلة عالية . وهو فى هذا يذكرنا بالشاعر الأموى جرير بن عطية وقصيدته التى مطلعها :

لولا الحياءُ لَهاجَنِى استعبار
ولزرتُ قبْرَكِ ، والحبيبُ يزار

وكذلك رثاء البارودي لزوجته حين يقول :

يا دهرُ فيمَ فجَعْتنى بحليلةٍ
كانت خلاصةَ عُدّتى وعَتادي

إن كنتَ لم ترحمْ ضناي لفقدها
أفلا رحِمْتَ من الأسى أولادي

ثم يقــول :

هيهاتَ بعدَكِ أن تقِرّ جـوانحي

أسفا لبُعْــدِكِ ، أو يلين مهادي

والشاعر عبد الرحمن صدقى فى العصر الحديث رثى زوجته بديوان كامل ، وهو بلا شك لون من الرثاء جدير بالإكبار والتقدير .

وقد رثى ابن بليهد زوجته بقصيدة طويلة منها :

تصــرّمَتِ الأواصــرُ والرِّمام

من الدنيــا وهل يُغْنِى الكلام

فما بعد الذي لولا لِقــــاهُ

لما سارت بنا الإبِلُ الكرام

كأنّ الرزءَ عَلَّقَ فى فـؤادي

قطاةً حين أفْلتها القَطــام

يقول الركب : إن الموت حق

فمن خلّفْتَ أدركه الحِمام

ففى بطن الثّرى قد أودعوه
إلى من لا يـــرام ولا يضام
سيفتح من جنـــان الخلد بابا
ونورا ينجلى عنـــه الظـــلام
عسى قبـــرا أقام به وحيـــدا
يُغاثُ وكلّما انسكب الغمام
لعل اللهَ يكلـــؤه بعطـــف
وعيْنٌ فى البـــرية لا تنـــام
ثم يقـــول :
ولكنْ ليس يُنْسينيك شيءُ
ولو نَسِيَتْ مصائبها الأنـــام
فمِنْ شطب إلى أكناف تَيْمَا
مصيباتٌ أواخِـــرُها عِظـــام
رعاك الله بعْـــدي من فقيـــد
عـــزيزٍ لا يبـــاع ولا يسام

بأمر الله ما هبّتْ ريــاح
وما غنت على الفننِ الحَمام

وفى حِلٍّ مدى الأيامِ منى
فما للجُرْحِ بعدكمُ التئــام

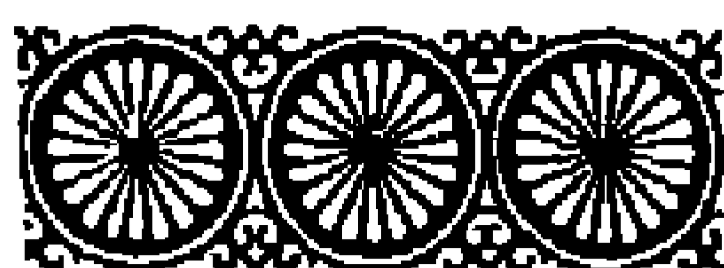
بنفسٍ ما يطيب لها شــراب
على شَحْطَ المزارِ ولا طعام

ونلحظ فى الأبيات ضعف العاطفة ، مما يجعلنا نعتقد أنه كتبها مراعاة لبعض الخواطر وأصول الوفاء والمجاملة ، أو أن وقاره منعه من إرخاء العنان لمشاعره ، ولعل الأبيات الأخيرة أحرها عاطفة وأصدقها إحساسا .

وبعد فإن ابن بلهيد شاعر ملتزم بعقيدة هى العقيدة السلفية ، مؤمن بفكرة هى توحيد البلاد فى كيان واحد كبير ، تحت قيادة رشيدة ، تمثلت أمام عينيه وتجسدت فى شخص الملك عبد العزيز ، فوقف شعره للدفاع عن

عقيدته ، والدعوة لفكرته ، والإشادة ببطله وبمن أيده فى مسيرته ، وسار معه فى طريق الحق والخير .

كان شعره رغم اتباعيته لبنة فى الصرح الأدبى الذي نعيشه اليوم . ويكفيه خدمة للأدب ما قدمه فى كتابه صحيح الأخبار الذي سيظل يشهد له بالسبق على مر الأعصار .



فؤاد شاكر

هو شاعر من الدرجة الأولى ، وصحفي أول ، ذلك أنه بدأ اشتغاله بالصحافة منذ حوالى سنة ١٩٣٠ م . وتسلم رئاسة تحرير صوت الحجاز عام ١٩٣١ م . لمدة سنة واحدة ، ثم رأس تحرير عدة صحف على فترات مختلفة كجريدة (أم القري) ، وجريدة (البلاد السعودية) ، وبلغ عدد مؤلفاته ثمانية عشر كتابا ، واشترك فى كثير من المؤتمرات الأدبية والسياسية ممثلا للمملكة العربية السعودية . ذلكم هو الشاعر فؤاد شاكر .

وديوانه الذي بين يدي الآن هو « وحى الفؤاد » ولعلنا نلاحظ باديء ذي بدء من مجانسته بين اسمه واسم الديوان مدى اعتزازه بشعره ، واعتقاده مسبقا أنه ممثل له ، ناقل عنه أفكاره وأحاسيسه بكل أمانة وصدق ، والديوان على كل حال يضم زهاء أربعمائة صفحة ، ومما يؤكد فكرة الاعتزاز هذه عند شاعرنا : اهتمامه بجمع التقريظات النثرية والشعرية لشعره ،

والاخوانيات التى كتبها عنه زملاؤه أو أرسلوها إليه فى المناسبات المختلفة ، ومركزه الصحفى والوظيفى كان يهيئ له الكثير من هذه الاخوانيات ، ليس هذا تمهيدا للغض من قيمة شعره ، فهو من الشعراء الرواد بلا ريب ، من حيث ولوج رياض الشعر والأدب على الأقل ، وإذا تذكرت أنه بدأ كفاحه الصحفى والأدبى منذ عام ١٩٣٠ م علمت له مكانته وسلمت بريادته .

يقول كاتب مقدمة الديوان الأستاذ محمد سعيدالعامودي:

« فى هذا الديوان نلتقى مع شاعر يحرص على أن ينثر من ذكرياتنا وأن يستلهم من ماضينا ومن حاضرنا ومن كل حدث مثير : كل ما يستحث العزائم ويدفع إلى النهوض .

وما قاله الأستاذ العامودي هو بحق يمثل الجزء الأكبر من الديوان . فلم يدع مناسبة وطنية أو تاريخية. عربية أو إسلامية إلا اهتبلها ونظم فيها ، فأجاد الوصف وأحسن الرصف ، واستنخى الأقلام وحرك الهمم والأفهام.

يقول فى الاحتفال الثانى الذي أقيم بمناسبة ذكرى جلوس المغفور له جلالة الملك عبد العزيز ، وشهده كثير من الكبراء ورجال الدولة والأعيان ورجال السلك السياسى العربى والأوربى ، برياسة حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل المعظم نائب جلالة الملك يومذاك ، وذلك سنة ١٩٣٠ م يقول :

يا صاحبَ العيد مهــلا قد طاب عهدُك عهدا
عيــدٌ أطلّ بوجــهٍ يرفّ فى الناس سعدا
يضــوع ريّا شــذاه مِسْكا ويأْرج نَــدّا
حمدْتُ يــومى وإنِّى سأُوسِع الدهرَ حمدا
ذممتُ أمسى ، وأمْسى قد كان يحملُ إِدّا
شبيبةَ العُرْبِ أهــلا بكم جــلالا وجدا
لُوحوا نجوما ورُوحوا فى لبّةِ المجــد عِقدا
نسجــتُمْ للمعــالى مناسجَ الفخــر بُرْدا
فحطّوا الجهل عنكمْ وأوْسِعوا العلْمَ كَدّا

فى ظلِّ شهْمٍ كريمٍ   إلى المعــالى استعدّا
وباعثِ العزم فيكــم   عبد العــزيز المفدي

فهو إذاً قد رافق مرحلة التكوين الجاد لهذه المملكة ، والكفاح البطولى الرائع فى مجال الفكر والسياسة ، الذي اختطه المغفور له جلالة الملك عبد العزيز وأرسى أركانه ، فكانت نتائجه هذه العهود الزاهرة التى نتفيأ ظلالها اليوم ونعيش أمنها واستقرارها ، ونقطف ثمارها فى عزة وشموخ ، ومن هنا كان شعره وثائق أدبية وتاريخية هامة لفترة هامة من تاريخ هذه المملكة الفتية ، لا يستغنى عنها مؤرخو الأدب ولا أصحاب التاريخ العام.

وفى المؤتمر الوطنى الأول بمنى عام ١٩٣١ م يقول :

الله أكبرُ أي يوم أنظر ؟
هذا المحصّبُ بالمنى يتبخْتَــرُ
رفّتْ عليه جلالةٌ وضّــاءَة
يزهو بنُضْرتها الجديبُ ويُزهر

طلع الإمامُ بها ، وأقبل كالمُنَى
بسامةً ، وهاجـةً تتنضّر

والناس تجثُمُ حوله وقلوبُهمْ
ترنو إليه تَجلّةً وتكبّـــر

ونلحظ في هذه القصيدة روح البحتري يتوثب خلال الأبيات ، ويذكرنا بقصيدته فى مدح الخليفة العباسى المتوكل فى يوم العيد أيضا ، وعلى البحر نفسه والقافية نفسها ، والتى منها :

ذكروا بطلعتك النبيَّ فهلّلــوا
لمّا طلعت على الجموع وكبّروا

وافتنّ فيك الناظرون فاصبُعٌ
يُومَى إليك بها ، وعينٌ تنظر

وهذا يضع أيدينا على مصدر هام من مصادر ثقافة هذا الشاعر ، وهو الشعر العباسى الذي ظل ولا يزال نبعا زاخرا من منابع الأدب العربى الأصيل ، ينهل

منه الشعراءُ على مر العصور ، يصقلون به مواهبهم ويهذّبون بروائعه ملكاتهم .

والدارس لشعر فؤاد شاكر يجده شعرا تقليديا لا منزع فيه للتجديد ، إنْ شكلا وإنْ مضمونا ، فمدائحه للملك عبد العزيز على كثرتها لم تتعدّ الأُسلوب الذي كان ينهجه شعراءُ المدح المشهورون فى تاريخ الأَدب العربى سواءٌ فى الأَفكار أَم الأَخيلة ، أَم الصور اللفظية . وهنا أَحب أَن أُشير إلى ناحية هامة شَغَل بها كثير من أَدعياءِ التجديد فى العالم العربى اليوم أَقلامهم . تلكم هى قضية شعر المديح فقد عدوه نوعا من الملق والنفاق الاجتماعى ، وسلبوه كل قيمة أَدبية ، واعتبروه نمطا من التعبير يحط من شأْن قائليه ، وبناءً على رأْيهم هذا نالوا من شاعرية كثير من الشعراءِ القدماء والمعاصرين وهذا الاتجاه فى رأْينا يحتاج إلى كثير من المراجعة والتثبت وحسن التقدير .

فليس من المنطق فى شيء أن نلوم من تغنى بالبطولة والأبطال ، ومن أشاد بالكرم والكرماء ، وليس من الرأي أو الحكمة أن نذم من سجل لذوي المناقب مناقبهم ، وشجع الفضيلة وأهل الفضائل والمكرمات . . إعجابا بهم وبما تحلّوا به من صفات ، وما أتوه من أعمال جليلة تثبّت دعائم الخير والعدل ، وتسمو بهم وبأُمتهم وقبيلهم . . إن العكس هو الصحيح . . نعم نحن نوافقهم فى ذلك المدح المداجى الذي تحركه الرغبة أو الرهبة ولا يصدر من قلوب قائليه ، ذلك لما فيه من تزييف للحقائق وافتئات على الحق والتاريخ .

أما مدح المستأُهلين للمدح فهو فن من القول شريف . . وهو موجود فى جميع الا داب العالمية ، ومنها آداب الأُوروبين الذين تتلمذ على أيديهم هؤلاءالأَدعياءُ ، فالصدق فى التعبير وحده إذن هو محك الفن الرفيع ، بغض النظر عن كونه مديحا أو غيره ، لأَن التصنع والتكلف يقع فى المديح كما يقع فى الوصف أو الغزل

أو الرثاء أو فى أي فن أدبى آخر ، ويقع فى الشعر كما يقع فى النثر .

ولشاعرنا فؤاد شاكر قصائد كثيرة ألقاها بمناسبة استقبال الحجيج بين يدي جلالة الملك عبد العزيز ، وكان أكثرها يتضمن الدعوة إلى الوحدة العربية والإسلامية ، ومن ذلك قصيدته الرائية التى ألقاها عقب حج عام ١٩٤٥ م وهو العام الذي تأسست فيه الجامعة العربية ، يقول فيها بمناسبة استقبال عربى كبير متوجها بالخطاب إلى جلالة الملك .:

هنا كان بالأمس القريبِ محافلٌ
لِحجّاج بيت الله حيثُ الشعائرُ
وقد حفلت بالقوم من كل بقعـةٍ
فِجاجٌ فسيحاتٌ هنا ومشاعر
وكانت لهم فى منتداك مجامـعٌ
خلَتْ ، ونوادٍ بيننا ومنـابر

رأَوْا مِنْ ذيوع الأَمن ما لم تفُزْ به
سطورٌ من التاريخ ، والدهر غابر
يُسطّرها عبدُ العزيز بسيفـــه
وأَخلاقِهِ ، والله للحق ناصـــر
مشى العُرْبُ يسعَوْنَ الغداة لوحدة
بها الشَّمْل مخْمِيٌّ العرين مُؤازر
وأَنت لهم قطْبُ الرَّحى فى مكانه
تشير إليها فى النفـــوس خواطر
فمن كان يبْـــغى وحدةً عربيةً
فأَنت إلى التوحيـــد داعٍ وذاكر

وكما رافق بشعره كفاح الملك عبد العزيز فى بناء دعائم هذه المملكة وإرساء قواعدها ، فإنه سجل فيه كثيرا من مواقف الملك الشهيد جلالة المغفور له الملك فيصل رحمه الله ، منذ أن كان أميرا ونائبا على الحجاز من قبل والده ، إلى أيام عهده الميمون . فقال فى حفل أقيم فى بستان الزاهر بمكة احتفاء بعودته من إحدي

رحلاته إلى أمريكا أيام والده ، للنضال فى قضية فلسطين عام ١٩٤٣ م :

مولاي إنك فى سفـــارة أمـــةٍ
لك من أبيكَ منارةٌ وشعـــارُ
إن كنت فى الأمصار تطــويها فقد
حفلت بفيض ثنائك الأمصار
حملت مناقبُك الكريمةُ صـــورةً
عن أمة الإسلام ، وهى منـــار
فأريْتَ للدنيا الجديدة بعضَ ما
هو فيك من خُلُقٍ إليـــه يُشـــار
وأريتَ للدنيـــا التى طوفتها
كيف العـــرينُ يُصان منه ذمار
ويشدّ أزْرك فى السفارة (خالد)
وعليـــه من شِيَمِ الوقار فخـــار
أنتمْ لدين الله خيرُ دعايـــةٍ
ترنـــو إلى تمجيـــدها الأقطار

ويسترعى انتباهنا فى البيت السادس ورود اسم خالد . فمن خالد هذا الذي يعنيه الشاعر . . . ؟ إنه جلالة الملك خالد بن عبد العزيز الذي نعيش عهده الزاهر اليوم .

فمن المعروف أنه كان يرافق الفيصل فى كثير من سفراته السياسية ، وهو موضع ثقته منذ عهد والدهما العظيم ، وخالد المفدّي اليوم يواصل المسيرة الراسخة بكل أمانة وصدق ، إلى أن تبلغ البلاد أمانيها وتحقق آمالها إن شاء الله .

وفى سنة ١٩٤٩ م زار المملكة أول فريق كشفى عربى ، وفى حفل تكريمه ألقى شاعرنا قصيدة قيمة منها :

حفلَ الغابُ بأشبال العرينْ
فانزِلوا ساحته مستبشرين

أرأيتمْ وطنا ممتنعا
منْعةَ الإسلام فى البيت الأمين

فاقبلوا من أهله أهلا لكم
وخذوا إخوانَ صدق مخلصين

يا شبابَ الغد من كل فتى
باسلِ الهمّةِ معدومِ القرين

قيّض الله لكم فى أرضه
مَلِكا يعمل فى صَمْتٍ ولين

بشّروا بالوحدة الكبرى التى
وحّد الله بها المستمسكين

حقّقوا ما يأمر الدين به
بانعقاد الرأي والعزم المكين

وخذوا من عاهل العُرْبِ لكمْ
مثلا فى الجدّ والعزم المبين

وله فى الاجتماعيات مشاركات . ومن ذلك قصيدته التى قالها بمناسبة تأسيس دار الأيتام بمكة عام ١٩٣٩م والتى منها :

خيرُ بيتٍ فى الناس بيتُ اليتيمِ
ذاك من منطق الرسول الكريم
وأبَرُّ الإحسانِ ما كان لله
خفيًّا ينال عطفَ اليتيم

وفى قصيدة أخرى بعنوان (الراحمون يرحمهم الرحمن) يقول :

مشتْ وهى فى أسمالها تتعثّرُ
فتاةٌ عليها عفّةُ الطهر مئزرُ
تسائلنى فى ذلّة وتفجُّعٍ
ومدمعُها من قلبها يتفجّر
ومن حولها طفلٌ وأُمٌ وطفلةٌ
وشيخٌ على أعطافه يتكسر
إذا سترت وجهاً حييًّا ببرقُعٍ
تبدّى به الفقر الذي ليس يُستَرُ

تقول : أهذا عَمْرَكَ الله ما ترى

من العُرْيِ يكسونا ، فهل أنتمُبْصِر

أتبصر جسما رقّ عنه نحولُهُ

ودقّ عن الرؤيا فما ثَم يُنْظر

يراوحها قرٌّ الشتاء ببُردةٍ

ويلفحها حرٌّ الهجير ويَصْهر

وقد يكون نظم هذه القصيدة متأثرا بقصيدة الرصاف (اليتيم وأمه) ، التى منها أخذ الشاعر الصورة الواردة فى البيت السادس ، مع تحوير أساء إلى جمالها ونقص عن إدراكها : يقول الرصافى :

وجسما نحيلا أنهكَتْه همومُه

فكادت تراه العينُ بعض توهُّم

وقال فؤاد شاكر :

أتُبْصر جسما : رقّ عنه نُحولُه

ودقّ عن الرؤيا فما ثم يُنْظر

ولست أدري كيف يرق النحول عن الجسم ؟ وكيف أباح لنفسه المبالغة فى قوله « فما ثم ينظر » أما الرصافى فقد جعل الجسم نحيلا بسبب الهموم المتراكمة عليه ، ولم يقل لم يعد يُنظر ، وإنما أتى بكلمة « كاد » التى تفهم المقاربة ، وتؤدي المعنى قويا ، وتوضح صورة الهزال ، فعبر عن مراده وسلم من المبالغة والاضطراب .

وفى السيل التاريخى الكبير الذي أصاب مكة عام ١٩٤١ م وغمر المسجد الحرام قال :

أرأيتَ مكة والشِّعاب ومَنْ بهـا
فى حادثٍ لم يأْتِ فى الأدهـار
كشفَ الزمانُ به سجلَّ صحيفـةٍ
ملئت من الأحـداث بالآثار
الغيثُ صبَّحها بغارة مُزنـهِ
ظلماءَ لم تُشرق بشمسِ نهـار

فكأنما وجـهُ الأَصيل دجنّـــة
كُسِيَتْ من الظلماء ، أَلفَ ستار
فإذا بـأَفــواه السماء تفتّحـــت
عن صيّبٍ ، متدافــع مــدْرار
وإذا الربوعُ تسيلُ ملْءَ بطاحهــا
وإذا الشعابُ تَفيض بالأَنهــار
ويحَ البيوتِ وقد تبعثَــر بعضُها
فالدار بعد السَّيْل غيرُ الــدار
والمسجد المعمــور عاد بُحَيْـــرة
صخّابةَ الأَمــواج بين بحــار
أَقسمتُ لولا الله أَكــرمُ راحم
شملَ العبــاد بعطفِه المــدرار
لتعطّلتْ فيــه الصلاةُ ليــاليًــا
من دون كلّ مسبِّــح ذكّار

وفى تحية أول بعثة سعودية أتمت دراسة الطيران فى أوربا وعادت إلى أرض الوطن يقول :

يا نسـورا مشَتْ تبـارِي الغماما
ركَّزوا فى سمائهـا الأَعـلاما
واسحبـوا هامكمْ على الأُفْقِ حتى
يُصبحَ العُـرْبُ للأَنام إماما
لا تقولوا هـذي أمانيٌّ نفس
تتغـالى فتعشـقُ الأَوهـاما
لا تقـولوا هذي أغاريدُ شعـر
صاغها شاعرٌ يجيـد الكلاما
رُبَّ يوم ٍ يعـودُ فيـه إلينـا
تالدُ المجـدِ طارفا يتسـامى
إنْ علِمْنـا فكلُّ أمـرٍ قـريبٌ
أو ركدنا فكلُّ قصْـدٍ ترامى

وبمناسبة إنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تلك الجامعة التى أُنشئت لخدمة الدعوة الإسلامية ، واستقبال الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى وتزويدهم بالثقافة الإسلامية العالية ، وتصرف الدولة

لهم المكافآت المالية التى تساعدهم على مواصلة التعليم .

يقول فؤاد شاكر :

أنظـروا يا قـومُ هـذا منهـلٌ
طاب للشـاربِ وِرْدًا وشفاءً

قَبَسُ الإســلام منها واضـحٌ
يغمـر الكَونَ شُعـاعا وضياءً

روضــةٌ للعــلْمِ تهْدِي كلَّ مَنْ
عَبَرَ الروض ، ومن راح وجاءَ

نزلتْ ساحاتِــه أفلاذُنــــا
فتلقّــاها رِفــاها وَرَخـــاءً

وجَنَى فى فمـــه ذاك الجَـنَى
من رحيــقِ العــلم خيرًا ونماءً

وهكذا نرى الصبغة الدينية والعربية هى التى تسم عامة أشعار فؤاد شاكر ، وتوجه أفكاره وخيالاته ، ومن ذلك قصيدته التى قالها بمناسبة شهر الصيام ،

وجعل منها وسيلة للدعوة إلى مواساة الفقراء ، والاتصاف بالأخلاق الكريمة الفاضلة ، كما دعا فيها إلى التآخي والوئام وانتهاج روح الإسلام ، ومن ذلك قوله :

جاء شهرُ الصيام بالبيِّناتِ
فاستمع فيه مُصْغِيا للعظاتِ
واخفِضِ الرأس للجلال ، وطهِّرْ
هذه النفسَ من شرور الحياةِ
أيّ شهر هذا الذي أنزل الله
لنا البِرَّ فيه ، بالطاعات

إلى أن يقول :

أيها الناس والمروءةُ خُلْقٌ
هُوَ للمصلحين خيرُ السمات
ما استحقّ الحياةَ من عاش فيها
مؤثرا نفسهُ على كلِّ ذات
إنما المؤمنون إخْوةُ صِدْقٍ
في نعيم الحياة والنائبات

ويختمها بقـوله :

ذاك شهرُ الصيامِ شهرٌ زكيٌّ
طهَّرَ النفسَ من شرور الحياةِ

ومن شعره الديني أيضا قصيدة شهيرة ، عنوانها (على الربوات الخُضْر) تغنيها أُم الوليد (نجاة الصغيرة) وهي :

على الرّبواتِ الخُضْرِ من أَرض يثْرِبِ
وقفتُ أُناجي خالـقي بدموعي
على الرّبوات الخُضْر من أَرض طيبةٍ
وفي عـزٍّ إيمـانٍ وذُلّ خشـوع
وقفتُ ولي بين الجوانح خافـقٌ
يرفرف بالأَشواق بين ضلوعي
بلغتُ المُنى لما بلغتُ مكانـةً
سموتُ بهـا في روضةٍ ببقيـع
وشاهدْتُ أنـوارَ النبيِّ محمّـد
فنعم الورى في بهجـةٍ وسُطوع

سلامٌ رسولَ الله ما لاح شارقٌ
وسبّحَ إنسانٌ سلام خضوع

ملأْت الورى نوراً فعمَّ ضياؤه
جلالا ، وألقى السمعَ كلٌّ سميع

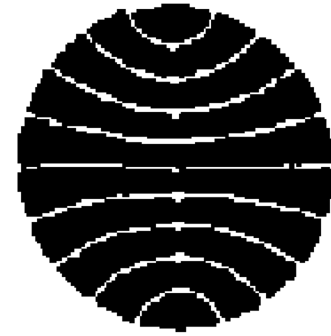
فيا أيُّها الربْعُ الكريمُ تحيّةً
أضاءت بنور الحق كلّ ربوعِ

شَرُفتَ بخير الخلق حينَ ضمَمْتَهُ
وفُزْتَ بحصن للجلال منيع

بلغتُ المنى لما بلغتُ محمدا
فيا : رب هل من عودة لرجوع

فى الواقع أن ديوان شاعرنا فؤاد شاكر لا تكفيه حلقة واحده وهذا الأمر ينطبق على كثير من شعرائنا الرواد الذين أغنوا مكتباتنا بدواوينهم أو بديوان كبير يقوم مقام عدة دواوين كما فعل هذا الشاعر . ورغم

هذا الديوان الكبير فإنه لم يرْق فى شعره إلى مصاف أقرانه وزملائه من الشعراء الذين عاصروه ، بل ظلت صياغته فى حاجة إلى حسن السبك وقوة البناء وجمال التصوير ، ومع ذلك فهو كما قلت فى أول كلمتى : شاعر له شرف الرواد وفضل السابقين .



حسن مصطفى صيرفي

شاعرنا الصيرفى شاعر متعدد الجوانب ، ثري الاتجاهات ، نظم الشعر الوطني والغزلى ، والشعر الاجتماعي والوجدانى ، والشعر العربي الأصيل القوافى ، والعامى الفكه الهادف ، كما نظم كثيرا من كلمات الأغانى لجملة من الفنانين فى بلادنا ، حين كان الناس يتخوفون الدخول فى هذا المضمار ، ويعتبرونه نوعا من المجازفة الفنية .

ومن منا لا يذكر :

يا فاغية يا جميلة عطـرت زهر الخميلة

أو . . .

يا نسيـم الصّبـــا ريحتك عطـر غالى

ريحتك من قبـــا وللأزهـور العـوالى

ومن أهم ما يتميز به شاعرنا الأستاذ حسن صيرفى : الصدق والوضوح فى شعره ، فأنت لست فى حاجة إلى أن تبذل أي جهد فى استكشاف شخصيته الحياتية

أو الأدبية ، فشعره صورة صادقة لحياته وأحاسيسه وتجاربه ، تقرؤه فتحس أن الشاعر نفسه واقف أمامك ، يقدم لك فكره فى كلمات يسبق معناها إلى ذهنك ، ويثب تأثيرها إلى قلبك دفعة واحدة ، وحسب الشعر شرفا وقدرا ما فيه من صدق ووضوح . وإذا كان لابد أن نبحث له عن نظير فى شعراء العصر الحديث ، فإن ذلك أيضا لا يرهقنا كثيرا ، فهو شديد الشبه بشاعر النيل حافظ إبراهيم ، وبخاصة فى بعض صفاته ، فكلاهما مسامر من النوع الأول ، سريع البديهة حاضر النكتة ، يحفظ كثيرا من النوادر الأدبية اللطيفة ، يحلى بها مجلسه ، ويملك بوساطتها ناصية الحديث ، وكلاهما يعتمد على الثقافة العامة ولا يطيق المثابرة على الدراسة المتخصصة ، ولكن شعرهما مع ذلك أقرب إلى نفسية المجتمع وألصق بآلامه وأحلامه ، مما هيأ لهما مكانة خاصة لم تتهيأ لغيرهما من الشعراء . واسمع لشاعرنا يعارض حافظ إبراهيم فى قصيدته التى

بعنوان (مصر تتحدث عن نفسها) . يقول حسن مصطفى صيرفى فى أول قصيدة من ديوانه (دموع وكبرياءٌ) تحت عنوان (أمجاد المدينة) .:

وقف الناس ينظـرون منـاري
كيف شعّ الهـدى على كلٍّ نجد
أنا دارُ الإيمان والمثُلِ العلْيا ، ورمز الخلود فى كل مجد
أنا إنْ بدّد الزمانُ شعـاعى
لن ترى النورَ هذه الأَرضُ بعدي
أنا خيرُ البقـاع ، كرمنى الله
بخيـر الأَنام فى خيـر لَحْدِ
أنا قابلتُـه بأَرْحبِ صـدْرِ
ثم أودعتـه حشـاشة كبْـدي
أنا فيما مضى صنعتُ كثيـرا
وسيبنى الجـديدَ لابدّ زنْـدي
فى رحابى ترعرع العـلمُ طفلا
ومشى حارسا جحـافلَ أسْدي

ويستمر شاعرنا فى تعداد هذه الأمجاد ، بذكر أهم الفتوحات الإسلامية التى انطلقت راياتها من البلد المقدس (المدينة المنورة) ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى تأثلت أركان الإسلام ، واشتدت دعائمه ، إلى أن يقول :

وجيوشُ السماءِ يومَ حنينٍ
نصرَتْ معشري بأكرمِ جُنْد

والأعاصيرُ والرياحُ بسَلْعٍ
مزّقتْ شملَ قاصدي بالتعدّي

أنا هذا الذي ذكرتُ . . فمَنْ ذا
يرفعُ الرأسَ بعْدَ هذا التحدّي

ثم يشير إلى أن المدينة تعرضت فى بعض العهود المظلمة من تاريخ المسلمين إلى الإهمال حتى عادت واحة منسية إلا من الزوار ، ولم تدب الحياه فيها من جديد إلا فى العهد السعودي الزاهر على يد صقر الجزيرة ، حيث بدأت مسيرتها فى ركب الحضارة من جديد ،

وأخذت تنال الاهتمام اللائق بها كبلد كان فى يوم من الأيام عاصمة الإسلام الأولى :

إن أكن عقّـنى البنــون فإنى
لا أبالى ، وقد وفيْت بوعدي
أو أكن حطّم البغــاةُ جنــاحى
جبّرَ الكسر بعد ذا صقرُ نجــد
لم يزل يصْنع الكثيرَ إلى أن
عاد نبْع الحياة فى سفْح أحْــد

وهو كثير الالتفات إلى الماضى والأمجاد الإسلامية القديمة الخالدة ، يتخذ منها وسيلة لاستنهاض الأمة وحث الشباب على أن يتنوّروا هذي الاباء ويسيروا على خطى الأجداد ، ففى قصيدة له بعنوان (يا عيد) يخاطب العيد ويناجيه كالمتنبي ، مع اختلاف فى الغرض والغاية يقول :

يا عيدُ عدتَّ . فهل عادت ليالينا
وهل ترنّم فى الصحــراء حادينا

وهل تبسم ثغرُ الدهر وانفرجَــتْ
تلك الأَساريرُ عن تقطيبها حينا ؟

عن عهد طه . وعن عهد الخلافــة
عن بنى أُميــة والعباس . أَنْبينا

بل عن تراثٍ نَسِينــا أَنَّ قيمتَــــه
دمُ الجدود . نفَضْنــا منه أَيدينا

أَعِدْ حديثك عن بــدر وعن أُحُدٍ
وعن حُنَيْــنَ ويرمــوكٍ وحطينا

وعن أُناسٍ تفانَوْا فى عقيــــدتهمْ
قد جَرَّعوا الكفر بالإيمــان غسلينا

كانوا إذا انصرفوا يوما لغــايتهمْ
لا يرجعون بغير المجدِ آتينــا

ويعقد بعد ذلك موازنة قصيرة بين هذا الماضى المشرق العظيم للأُمة الإسلامية ، وبين ما آلت إليه فى العصر الحديث من ضعف وتخاذل ، تحدَث عن أكبر وصمة فى جبين العالم الإسلامى ، وهى ضياع فلسطين .

ثم فى آخر القصيدة وعد شاعرنا برجوعها ، ولم يدع اليأس يسيطر على نفسه وقلبه . وذلك إن تضافرت الجهود وأخلصت القلوب وتصافحت العقول وتآلفت الأنفس .

وهذا الشعور العربى والإسلامى الذي تتسم به حياة شاعرنا الصيرفى هو الذي كان يدفعه إلى الاشتراك بشعره فى جميع الأحداث العربية التى عاصرها وعاشها كرجل ذي مسؤولية يهمه أمر العرب والمسلمين فى كل مكان ، يفرح لفرحهم ويشجيه ما يشجيهم ، فهو يرافق صراع العرب الحربى مع إسرائيل منذ بدايته عام ١٩٤٩ م إلى اليوم ، فيقول فى الأيام الأولى من تلك المعركة :

سكت اللسانُ وناب عنـــه المدفَــعُ
فإذا به عنــد المقالة يُسْمَــع

عاد الكثيرُ من البـــلاد بفضله
أما البقيةُ عن قريب ترجِــع

قل للصهاينة اللئـام : تريثوا

ودعوا اللجاج فليس فينا مطمع

وانجُوا إنِ اسطعْتُمْ إذا نزل القَضا فيكم بياتاً أوصباحا يفزع

ونلاحظ أنه فى البيت الثانى من هذه المقطوعة قد وقع فى مخالفة نحوية ، حيث لم يقرن جواب (أما) بالفاء ، وذلك فى قوله (أما البقية عن قريب ترجع) والقاعدة توجب ذلك ، فالصواب أن يقول (أما البقية فعن قريب ترجع) .

وغنى شاعرنا أيضا لكفاح الجزائر فى معركتها التحريرية الخالدة ، ذلك الكفاح الذي دعمته جميع البلاد العربية ، ولم تكن مملكتنا المجاهدة بمعزل عن ذلك الكفاح المجيد . . . يقول الصيرفى :

الجزائرْ بلَدي . . . . الجزائرْ . . . كبِدي

يا أخى هيّا إلىٰ الغاصب لا أبْغى كلاما

لايفلُّ السيفَ إلاالسيفُ ... طلّقتُ السلاما

إنهم جاروا علينا . . مَنْطِقِ الخصرَ الحزاما
ثم دجّجْـه بأمشاطِ تعبّـأْنَ سهـاما

ووضع قصيدة طويلة فى معركة بور سعيد ، ولكنها رغم الدفقات العاطفية الصادقة ، التى تنبض بها أبياتها ، لم تصل من النواحى الفنية الأُخرى إلى المستوى المتوقع من مثل شاعرنا الصيرفى ، ويرجُح لدي أنه نظمها فى فترات متباعدة ، لأنها لم تسر على سمت واحد ، بل فيها ارتفاع وانخفاض ، ولعلها كانت قصيدة عادية ، ثم لإيمان الشاعر بفكرتها عاود العمل فيها بقصد تحويلها إلى شعر ملحمى .

وفى عام ١٣٧٧ هـ شب حريق هائل فى مكة المكرمة ، راح ضحيته الكثير ، فاهتزت نفس الصيرفى لهذا الحدث المفزع ، وعبر عن أساه وأسى جميع المواطنين وبخاصة فى المدينة المنورة فقال :

نبـأٌ صاعقٌ كسا كلَّ وجــــه
صفرةً تُفزِعُ القـلوبَ رؤاها

زعزع الأرضَ كالصواعق . كالهوْل

عنيفا مُزلزِلا أرجاها

ما تراها والذعْرُ يستبق الخطوَ

يجوس الديار فى دنياها ؟

نبأٌ روّع المدينة فى الصبح

فخارتْ لوقعه ركبتاها

وبكت أختها بأغزر دمعٍ

لفظتْه العيون من مجراها

أما شعره الإجتماعى فأغلبه منظوم بأسلوب فكه ، ولا يتقيد فيه بالفصحى ، بل ينأى عنها كثيرا ، ويتعمد فيه اجتلاب العامية بشكل غريب وعجيب ، وجميعه كان شعرا هادفا يعالج به بعض المشاكل فى مجتمعه الصغير تارة وفى المجتمع الكبير تارة أخرى . فقبل إنشاء شركة الكهرباء بالمدينة المنورة ، ركبت المراوح السقفية فى الحرم النبوي الشريف ـ مثلا ـ على أمل تشغيلها بمحركات خاصة أو نحو ذلك ،

ولأمر ما بقيت واقفة بعض الزمن ، فنشر الصيرفى الأبيات التالية فى جريدة المدينة :

أمراوح الحرمِ الشريف تحركى
ماذا يَضيرُ لو (انبَرَمْتِ) قليلا

هل علّقوكِ لكىْ تظلّ زينةً
فوق الرؤوس وما شفَيْتِ غليلا

أو ما نظرْتِ إلى ثيابى قد جَرَتْ
وديانُهـا عرقًا يسيلُ سيولا ...

(عَلّيتِ) قلبى لستُ أدعو خشْيَةً
أن يُستجابَ فتمرضين طويلا

وفى قصيدة له بعنوان (نزهة) يقول :

خرجْتُ بسيارتى مرةً
أرَوِّضُها فى طريق العقيقْ

فقالت حنانيْك فى (سُستتى)
من (الرّج) فى سكرةٍ لا تُفيق

وكلٌّ (الصواميل) قد أصبحتْ
مبعثرةً في حنايا الطريق
وأما (اللّديتـرُ) قد أوشكَتْ
(مصارِينهُ) تَضْطلي بالحريق
(يُبَرْبِرْ) من غيظه حانقا
يُرجِّع ترتيلَ بَقْ بَقْ بقيق)
ألم تر عمري كعمر الزهور ؟
ومَهْرِي كثيرٌ وأصْلي عريق
فكيف تُمرِّغني في التراب
أتحسبُ أنى حمارٌ عتيق
أتقتُلني في ربيع الشبابِ ؟
وتطحَنُني مثل طحْنِ الدقيق

قال شاعرنا هذا الكلام أيام كانت الطرق قائمة على التمهيد ومجرد التعبيد ، أما الآن فقد حلت محلها - بحمد الله - شبكة كبرى من الطرق المسفلتة ، التى

أصبحت تضم أطراف البلاد المتباعدة ، وتقرب بينها ، فلم يعد يُسمع فى لديتير السيارات شهيق ولا بقيق ، ولا تشكو سست ولا كفرات من الطريق .

وهذا الاتجاه عند الصيرفى إلى استعمال الألفاظ العامية فى شعره ، جرّأه على استعمالها حتى فى شعره الفصيح ، معتقدا قبول بعضها فى إطار اللغة الفصيحة وعد رفضها من الجمود اللغوي ، الذي لا مبرر له ، وكم جرى بيننا وبينه من نقاشات طويلة بهذا الصدد فى أمسيات أسرة الوادي المبارك بالمدينة المنورة ثم فى النادي الأدبي ولكن إصراره على وجهة نظره فاق كل تحمس وإصرار ، يقول فى قصيدة له بعنوان (فى المقهى) بعد أن ثارت به ذكريات الحبيب المغاضب المهاجر :

ودلفتُ للمقهى أدبُّ كأنــــنى

ثمِلٌ ، وما عاقرتُ بنت الحانِ

وقصـــدتُ كرسيًّا بركْنٍ هادئٍ
ذا نمرقَيْن ، أُعِـدَّ خلْف خوان
ألفيتُ نفسى فى رحابة صدْره
وسبحتُ فى دنيــا من الأَحزان
أسقيتُ نيرانى شرابا بــاردا
وصببْتُ فيها ماءَ كأْسٍ ثان
لم يستطيعا رغم برْد شرابِهِمْ
تخفيفَ حـدةِ ثورة النيــران
صفّقتُ . . جاءَ القهوجىُّ بشيشة
عدنيـــة ويليِّهـــا الصَّنْعـــانى
قد تُوِّجتْ رأْسَ الجُراكِ كأَنه
منضودٌ باليـــاقوتِ والمَرْجـــان
قبلتْ مَبْسمها فهــزَّ زفيــرُها
منها القوامَ كغادةِ الأَخـدان

وتنفّستْ بالطيب فاحَ أريجُــه
من عطــر كلكتّــا وباكستــان
أودعتُــه صدري وموطنَ علّتى
وغمرتُ منه مكامنَ الحــرمان
ونفثتُــه من بعد ذاك سحابــةً
مغمــورةً من أضلُعى بدخــان
أخــذتْ ضبابتُها تحلّق عاليًــا
محفــوفةً بمــواكب الاخـــوان
ثبتتْ طرفى فى مجال صعـــودها
ببــلادِ المتحيِّــر (الغَلْبــان)
ثم انتفضتُ وقمتُ أسعى ساحبا
قدمى إلى وكْنى وعشْ زمانى
وهناك بلّلتِ الفراش مدامــعى
أسفا على خلٍّ من الخـــلان

وعجبتُ للإنسان واعجبًا لـه
جُبِلَتْ غرائزُه على الكفـــران

وله قصيدة بعنوان (يا ليـل) أحسب أنهـا فى القمة من شعر ديوانه (دموع وكبرياء) ، جمعت بين جلال المعنى وجمال التصوير وحلاوة اللفظ وصدق العاطفة ، لولا بعض خدوش فى اللوحة ناتجة من استعماله لبعض الألفاظ العامية ، يقول :

يا ليـــلُ هل بيّتّ أمْـــرا
أين الصبـــاحُ ؟ مضى وفـــرًّا

يا ليـلُ من أغـــراكَ بـى ؟
حتى كأنك نلت أجــــــرا

(أتلَفتْنى) . . رفقا . . أأنتَ نذرْت بى للبؤس نَذْرا
أين المفرُّ . . وقد أحطتَّ على من لأْواكَ بحرا ؟
نزَّ الأسى من قلبى المكبـولِ فى الأصفـادِ أسْرا

وتسربتْ نفسى مع الدمع الذي قد سالَ نهرا
وتهاطلتْ نِقَمُ الحيــاة تخصُّنى صوْبا وقَطرا
والنومُ إن شبْرا دنوتُ له يفــرُّ النوم مِتْرا
يا ليلُ عسفُك لا يطاقُ وإننى بالعطف أحْرى
أَرعى نجومَك سارحا أَقتاتُ طعْــمَ الموتِ صبْــرا
ماذا جنيتُ كذا (تُمرْمِرُ) عيشتى يا ليلُ . . صبْرا
خدِّي على كفى . . وحينــا باليديْن أدقُّ صدْرا
وعلى الجبينِ أَبَتْ أَصابعُ راحتى أن تستقــرَّا
تغدو وترجع ، وارتعاشُ أناملى يزداد ذعْـــرا
وتعودُ تنقرُه لتوقظ إن غفَتْ فى الرأْس ذكْرى

توقفْ قليلا أيها القارئ الكريم وراجع فى ذهنك الأَبيات الأَخيرة لتدرك مدى التوفيق الفنى الذي تيسر له فى تصوير الحيرة والقلق تصويرا مصحوبا بالحركة

والإحساس ، دون أن يلجأ إلى أي حشو أو تطويل ، ولا يكتفي الصيرفي بهذا ، بل يمعن في نقل مشهد قلقه وحيرته بشكل يثير الإعجاب وينتزع التقدير فيقـــول :

فإذا عييت وخلتُ إعيـائي يقــود النوْمَ قسْرا
ألقِي بجسمي في السرير ورغم ذاك أهبُّ قهرا
لأطوفَ في بيتي وأهجُرَ غرفةً لأحلَّ أخرَى
وأعودُ أهتفُ للكرى خمْسا وعشراً ثم عَشْرا
وأعِدُّ (مرتبتي) وأطفيء (لَمْبَتي) وأكِنُّ نـزرا
وألفُّ نفسي بالدثار متمتما سُــوَرًا وذِكْرا
متقلبـا ذاتَ اليمين مواليـا شفْعـا ووتْـرا
وفراشي المقـــرور يلذَعُني فألْقَى منـــه نُكْرا
ويلوح لي وجهُ الحبيب يبعثر البسمــاتِ سُخْرا
فأهبُّ من عَبَثي وأوقِدُ (لمبتي) وأظلُّ أقـــرا

وأُقلِّب الأوراقَ لم أقرأ من الصفحاتِ سطرا

ويختمها بقـولـه :

آهٍ على وادي العقيق كساه ثوبُ الشمس تبْرا

والقصر والجمَّاء والزهر النديّ يفــوح عطرا

وأنا وأنـت وعالم نفث الغـرامُ عليه سِحْــرا

وشعر الصيرفى تفوح منه أشذاء البيئة المدنية بصورة ملفتة ؛ وتلك ميزة تدل على صدق فنى ظاهر ، هو شاعر لم يستعر تجاربه من قراءاته ولم يستوردها من ثقافات أُخرى ، بل هو ابن البيئة التى صنعته وشب بين ظهرانيها ، فالقصر والجماءُ وقباءُ وأُحد والعقيق وغيرها ، هى مسرح أشعاره ، وملتقى أخيلته ومناط آماله ، كما رأيت فى القصيدة السابقة ، وكما يمكن أن نسمعه فى قصيدة له بعنوان (ليالى العقيق) منها :

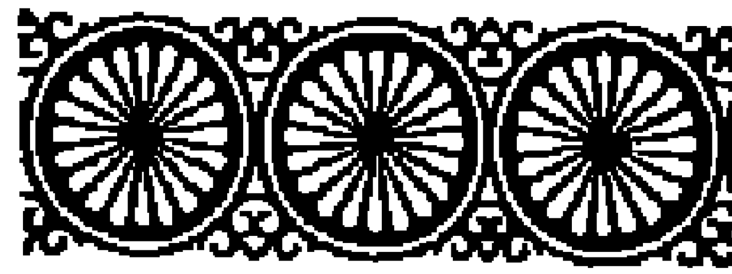
الْتقينا . . وانتهينــا

ونفَضْنا . . ما تبقّى من يدينا
وبكينـــا . .
ذلك الماضى بكينا
رحمةُ الله عليه وعلينـــا . .
يا ليالى الصيف فى عروة ، فى حضن المسيلَ
والسوانى تنعش السمّار باللحن العليـــل
والنسيم العاطر المغمــور فى النور الضئيل
من كُوَي الغيـبِ تـدفّقْ
يترقــرَقْ
كلما البدرُ حبا واختلســـا
لمحةً من عاشقين التمسا
مجلسا للسَّمــرِ . .
كاتما للخبــر
خلف غُصنٍ شرُفا
حين أمسى كنفـــا
لحبيب طاهــرِ

ومحبٌّ شاعــرِ

وهذه القصيدة الغزلية التى اخترناها لنختم بها هذه الكلمة هى من أروع قصائد الشاعر حسن صيرفى ، وهى تمثل التجديد فى أجمل مظاهره ، وتنبض بالحياة والصدق والجمال ، إن الألفاظ فى هذه القصيدة استحالت إلى نغم موقع ساحر ، وانقلبت إلى صور متدفقة متتابعة غامرة ، تملك النفس وتنعش الفكر وتمتع الوجدان .

فحيـــاكِ الله يا ليالى العقيق . .



عبد الحق نقشبندي

فى عام ١٣٨٥ هـ أقامت وزارة الإعلام بجدة مسابقة شعرية محدودة ، وأهابت بالشعراء للاشتراك فيها على أن لا تتجاوز أبيات القصيدة عشرين بيتا ، كما خططت لأفكارها فى المذكرات الخاصة التى أرسلت بها لأولئك الشعراء ، وهو فى رأينا تقييد عنيف للشعر ، يتنافى مع الحرية المطلوبة للإنتاج الفنى الأصيل ، ومع ذلك فقد اشترك جملة من شعرائنا فى هذه المسابقة بدوافع مختلفة ، وكان من هؤلاء المشتركين الشاعر عبد الحق نقشبندي وكانت قصيدته ضمن القصائد الفائزة ، وهى قصيدة صيغت فى أسلوب النشيد الذي يصلح للترداد فى المناسبات . وفيه يقول :

بنى موطنى . ! يا بنى موطنى

هلمّوا هلموا لمجد سَنِى

فمــن يطلبِ المجــد لا ينْثنى
إلى أن ينــال رغابَ المُــنَى

* * *

فهيــا بنــا يا زهور الشبــابْ
نذلِّلُ بالعــلم كلَّ الصِّعــابْ
فبالعــلم نُدرك أقصى الرغــاب
وبالفــن ترتــاح أرواحنــــا

* * *

كفانا سُبــاتًا زمــانٌ مضى
وذا الغرْبُ ماضٍ لغــزْو الفضا
فجدُّوا بعــزم كسَيْرِ القضــــا
فمن جدَّ فى القصد شهدًا جَنَى

وهذا النشيد يلقى الضوء على المشاعر الوطنية العارمة التى تعتمل فى نفس رجل تجاوز السبعين ، فلم

تَخْبُ فيه الشعلة ولم تنطفىء الفتيلة بل ظلت ملتهبة وقادة تدعو الشباب إلى العمل والبناء .

و من مواليد المدينة المنورة عام ١٣٢١ ه وقد مر على الحجاز والمدينة المنورة بالذات أيام حالكة السواد ، وسلسلة من الأحداث الجون كانت هى أهم أيام شباب شاعرنا النقشبندي . ففى سنة ١٣٣٣ ه وقعت الحرب الكبرى واصطلى أهالى المدينة بنارها أيما اصطلاء ، تبعثر فيها أهلها فى البلاد شذَر مذَر ، وتفرقوا أيدي سبا ، إذ أنه بعد سنة من قيام تلك الحرب ترجّح لدى الشريف حسين الانضمام إلى جانب الحلفاء ، ورفض فكرة الطورانية المجحفة ، فأرسلت إليه دولة الخلافة بأحد قوادها المشهورين ، هو القائد فخري باشا للقضاء عليه والحد من نشاطه ، وبسبب هذه الحرب انقطعت الأرزاق عن المدينة وانتشرت فيها المجاعة ، فرأى فخري باشا إجلاء أهل المدينة إلى سورية وتركيا لتأمين إعاشتهم هناك ، وكان شاعرنا النقشبندي ضمن

المسفّرين إلى دمشق ، وتفشت الأمراض بين المهاجرين وبخاصة حمى التيفوئيد ، ومات كثير منهم ، وبعد استرجاع المدينة كان الشاعر ضمن أهلها الراجعين إليها ، ولكن المدينة ظلت حبيسة عوامل كثيرة من التخلف والضياع ، إلى أن لمستها نفحات العهد السعودي الزاهر الذي نتفيأُ ظلاله اليوم فعاد لها رواؤها وسرت فى أرجائها الحياة .

ولشاعرنا النقشبندي ولع بالأناشيد فقد نظم أيضا نشيدا آخر بمناسبة يوم العيد الوطنى للمملكة العربية السعودية عام ١٣٩٤ هـ قال فيه :

إن هذا اليوم عيدٌ ماله قطُّ مثيلْ
حبذا يومٌ سعيدٌ لن يضاهيه بديلْ
جاءنا باليُمْنِ يَسعى فأتى الخيرُ الجزيل
كيف لا نفرح فيهِ ونغنِّى بالهديل
وطنى تَفديه نفسى دام فى ظلٍّ ظليل
هُو ريحانةُ روحى كلُّ ما فيه جميل

والأبيات من الأوزان الخفيفة التى تمازج النفوس وتخالطها بسرعة ، هذا علاوة على ما فى التعبير من بساطة تنم عن الصدق والإخلاص لموضوع النشيد ، وإنه لموضوع جدير بالوفاء والإخلاص ، فهو اليوم الذي توحدت فيه أجزاءُ المملكة الفتية على يد جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله ، فعاد إليها نبع الحياة من جديد قويا دفاقا ، بعد أن كانت نهبا للانقسام والفرقة والأحقاد ، وإنها لمشاركة جيدة معبرة من شاعرنا الذي عاصر ذلك الكفاح ، وعاش الأيام التى قبله وبعده ، فخبر الجهود المبذولة عن كثب ، فدفعه وفاؤه إلى أن يسجل عواطفه على القرطاس فى مثل هذه الأناشيد .

ولعل خلق الوفاءِ من أبرز سمات الشعر الذي ظفرنا به لهذا الشاعر ، فله بجانب وفائه لوطنه وذكرياته المجيدة قصائدُ إخوانية تفيض بروح الحب والوفاء ، ومن ذلك قصيدته التى ألقاها فى حفل التكريم الذي

أقيم لصديقه الشاعر أحمد العربى بمناسبة إنهائه الدراسة الجامعية عام ١٣٥٠ هـ . ومطلعها :

آب الخليلُ المفــدّى   يسمــو بهاءًا ومجدا
أهلًا به من نبيــلٍ   له المحامد تُهــدى
قد حاز مجدا وفخرا   وبالمعـــالى تــردّى

ويغتنم النقشبندي هذه المناسبة لينادي بنى وطنه بكل إخلاص وينصحهم بأن يتجهوا إلى التحصيل العلمى ، وأن يقيموا مستقبل البلاد على أساس العلم ، فهو وحــده طريق الخلاص من الجهــل والتأخر ، فيقــول :

هيّــا رجــالَ بلادي   نشمّرُ اليــوم زنْدا
نَشِيــدُ للعلم صــرحا   نَشِيــدُ ركنا أشدّا
بالعلم نُدرك شأنــا   بالعــلم نبلُغ قصــدا
فالجهلُ قد شاع فينا   حتى طغى وتعــدّى
فِيم البقــاءُ بذُلٍّ   من دونه الموتُ أجْدى

ثم يختمها بالدعاء للملك عبد العزيز رحمه الله فيقول :

حيِّ الإلــه مليــكي عبد العزيزِ المفــدي
مَنْ ساد عــدلا ورأيا فكان للنــاس

وفي اليوبيل الفضي لمجلة المنهل يدفعه خلق الوفاء أيضا إلى الاشتراك في الحفل الذي أقامه صاحبها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري بهذه المناسبة ، رغم أنه كان خارج حدود البلاد ، يبدؤها بقوله :

حيِّ في منهل الزلال رحيقا
في جَنى وِرْدِهِ لطيفَ المعاني
وتفيَّــأْ ظــلالَه وتلمَّسْ
في زواياه من قطوفٍ دَوان
واسمَعِ العندليبَ كيف يغنِّي
ببــديع النشيد والألحان

والملحوظ أن شعره وإن كان أغلبه من شعر المناسبات إلا أنه يجعل منه وسيلة للتعبير عن بعض المعاني التي

تجيش بها نفسه ، وهى فى الغالب أيضا تدور حول استنهاض الأمة العربية ودعوتها إلى نبذ الفرقة والكسل والتأخر ، وإلى الأخذ بأسباب العلم والمعرفة ، فهو يقول مثلا فى هذه القصيدة :

آن للعُرب أن يفيقوا ويبنوا
مجدَ أسلافهم بحدِّ اليمـــانى
إنّما المجدُ وثبـــةٌ وطمـــوحٌ
واقتناصُ العــلوم والعـــرفان

وأعدّ الشاعر قصيدة أيضا لليوبيل الفضى لجريدة المدينة ، حيث كان مزمعا إقامته فى المدينة المنورة ، على أساس أن هذه الصحيفة تحمل اسمها ، كما أن بداية حياتها وحياة صاحبيها كانت فيها ، ولكن ذلك الحفل تأجل لأسباب خاصة ، وذلك عام ١٣٨١ هـ . يقول النقشبندي فى هذه المناسبة :

لمنِ الزهورُ تنسّقتْ فى النـــادي
والبدرُ يَبْعَثُ بالشعاع الهـــادي

وحمائمُ الحرم الأَليفة رنَّمَتْ
فوق المنابر بالهديل الشّـــادي
وغدا العقيقُ خمائلا فينــانةً
تهفــو إليــه ركائبُ الوُرّاد
هذي (المدينةُ) في جلالِ أديمهــا
تُتْــلى صحيفتُهــا على الآماد
الله أكبرُكم أغذّتْ سيــرها
تَخْطو إلى العليــاء والأَمجادِ . !
مرموقــةً من كلّ عين بالرضا
محمــودةَ الإصــدار والإيــراد
ولقد تكامل حسنُها حتى بــدا
يوبيلُها الفِضِّيُّ في الأَعيــاد

ثم كعادته يخرج من المناسبة للحديث عن أحداث أمته ومشاكل بلاده وتطلعات مواطنيه ، فينادي بالوحدة ،

وبتركيز علَم التوحيد والعقيدة ، وتطهير بيت المقدس من الصهاينة الأَشرار .

وفى جماعة أَدبية بالمدينة المنورة ذات عمر قصير ، أَسمت نفسها (النادي الأَدبى) ، أَلقى النقشبندي قصيدة فى وفد فلسطينى ، فيها كثير من النبضات الشعرية الحية وذلك عام ١٣٥٤ هـ ومنها :

آهِ يا مهجرَ النبى فإنّا
ما رَعَيْنا حقَّ الجوارِ الغالى
يا وفودَ الإِخاء جاءت تلبِّى
داعيَ الله فى فسيح الرمال
إِيه يا إِخوتى الأَعزةَ ماذا
قد شعرتم خلال هذي الظلال . !
مهدُ أسلافِكم وأَرضُ جدودٍ
أدركوا المجدَ بالظُّبا والعوالى

أيهـا الوافدون ، جهـدَ محب
شاعـرٍ بالقُصـور والإقـلال
لم أكن شاعـرا بحـقٍّ فأَرْوي
غُرَرَ الشعر فى بديع الخيـال
غيـرَ أنى متيّمٌ ببـلادي
من ذُرَى ماربٍ لأقصى الشّمال
أرقب اليـوم لاتحـاد وحلْفٍ
ونجاةٍ من فرقـة وانحـلال
أنـا من معشـرٍ وشعب أبيٍّ
يُرخِصُ الروح فى سبيل المعالى
عربىّ ، دم العـروبة جـارٍ
فى خـلايا دمى ، وفى أوصالى
تلك آلامُ ما بنفـسىَ جاشت
فنشَـدْتُ السلُوَّ بالآمـال

وياليت شاعرنا النقشبندي ترك شعر المناسبات ، وأطلق لهذا الشعور الوطني الدافق العنان ، إنه لو فعل ذلك لأنجز كثيرا من الأعمال الفنية الرائعة ، ولعل هذه الأبيات وما فيها من رقة وعذوبة وسلاسة خير شاهد على ما أقول :

وفى عام ١٣٩٣ هـ توفى الأديب المعروف عبد الحميد عنبر أحد أعضاء مجلس الشورى ، وهو من أقرباء الشاعر وذلك فى حادث سيارة ، فرثاه بقصيدة قدم لها بقوله :

« لقد عشت مع أخى عبد الحميد عنبر فى أوائل عمري ونشأنا سواء فى بيت واحد ثم كنت معه فى الشام أيام الحرب العامة الكبرى ، وقاسينا معا شدائد العوز والمرض والاغتراب ، وبعد رجوعا للمدينة المنورة واصلنا الدراسة معا ثم شق كل منا طريقه فى الحياة »
يقول النقشبندي :

أبكيكَ يا عبدَ الحميدْ يا أيها الخلُّ الفريدْ
قاسمتَنى السّرّاءَ والضّراءَ فى بؤس ، وعيد
دالت بنا الأيامُ فى يُسرٍ وفى عُسْرٍ شديد
ولقد صرفْنا الجُهدَ فى طلب العلوم كما نُريدْ
حتى بلغنا غايةً ما كان فيها من مزيد
قد كنت أوثر أن أراك تعيش فى عُمُرٍ مديد
لِتزفَّ نعْشى أولًا وأكون قبل أنا الفقيد
لكن سبَقْتَ لدار فردوس فيالَكَ من سعيد

وفى حج عام ١٣٥٣ هـ زارت الكشافة العراقية المملكة ، وفى المدينة استقبلهم أميرها عبد العزيز ابن إبراهيم استقبالا حافلا ، وأقام لهم وليمة كبرى حضرها أعيان القوم ووجهاؤهم وأوكل إلى معتمدية المعارف أمر الحفل الثقافى الذي أُقيم لهم بهذه المناسبة ، وكان ذلك قبل إنشاء وزارة المعارف بالمملكة ، فالمعارف كانت في البداية كغيرها من الوزارات مجرد مديرية

فى مكة المكرمة ، وتتفرع منها معتمديات فى أمهات المدن ، وألقى شاعرنا النقشبندي القصيدة الترحيبية بهذا الوفد فقال :

مرحبا كشّافة العرب الكرام
خِيرةَ الزُّوار منْ دار السلامْ
فزتموا بالحج والبيت الحرام
طاب مسراكمْ وعدْتُم بالسلام

* * *

ي لقومى حسبُكمْ مِنْ ذا الشقاق
وتعالوا لاتحاد واتفاق
وأزيلوا كلَّ خُلْفٍ بيننا
حسبُنا كمْ نصطلى نار الفراق . . !
كوّنوها وحدة فى يعْرُبٍ
من رُبَى صَنْعا إلى أقصى العراق

كم صَبــرنا وانتظــرنا أمَــدًا
بيْد أن الصبر مُرٌّ فى المــذاق

اقرأوا منّــا تحيــاتٍ علَى
مَنْ ببغــدادَ إلى أقصى الشّأم

واهتفــوا فى كل يوم : فلتدُمْ
رايــةُ العُــرْب على كفِّ السلام

وهكذا نري النقشبندي لا يترك فرصة تمر به إلا جعل منها مجالا للمناداة بالوحدة والأُخوة ، ولعل ذلك راجع للفترة العصيبة التى عاشها جيله ، فهى فترة التحفز والتوثب والطموح بمقدار ما هى فترة تأخر وجهل وتفكك وشتات .

وفى زيارة الفيصل طيب الله ثراه للمدينة المنورة عام ١٣٩٣ هـ ، تلك الزيارة التى كان لها ما بعدها من تخطيط شامل لعمرانها ، والاتجاه إلى مضاعفة الجهد للخروج بها من حياة القرية الكبيرة إلى حياة المدن

النموذجية الراقية ، كما دعم فيها الفيصل وجود الجامعة الإسلامية وشد على عضد العاملين بها ، ووضع حجر الأساس لمكتبة عامة هى مكتبة الملك عبد العزيز التى توشك الآن على تمامها إن شاء الله . . فى هذه المناسبة نظم شاعرنا النقشبندي قصيدة منها :

طلع الفيصل المبارك أهلًا

بقدوم العميد وابن العميد

يا لها فرحةً لجيرة طه

أبْشِرُوا إخوتى بخير أكيد

ولقد كانت فعلا فرحةً ، وأية فرحة ، لم يستقبله أهل المدينة كولىٍّ لأمرهم تجب عليهم طاعته ومنحه ولاءهم ، ولكنهم استقبلوه استقبال المؤمنين بمبادئه وكفاحه ، وأحاطوه بسوار من قلوبهم وعواطفهم ... وليس ذلك بغريب ، فإنه فيصل الرجل ... فيصل البطل ... فيصل الذي أعطى لوجود هذا البلد معانى شتى ،

وأحلّه منازل شتى ، ثم لقى ربه راشدا ، وسلم الراية بعده لأُمناء مخلصين .

ويذكر النقشبندي جهود الفيصل فى تحقيق التضامن الإسلامى فيقول :

ثم جاب البـلادَ شرقا وغـربا
داعيـــا للتضـــامن المنشـــود

فصحَتْ من سُباتها أُمَمُ الإسلامِ
فى كل صقْـــعٍ وبيـــد

ثم يخاطبه بقوله :

أَنت حامى الإسلام فى كل قُطْرٍ
أَنـت رمز العلاء والتجديد

يا رَعى اللهُ فيصـــلا ووقـاه
شرَّ باغٍ وكائـدٍ وحســـود

رَبِّ بلغْـه ما يـروم لخيـرٍ
وأَنِلْه رضـــاكَ بالتأْييـــد

وكان النقشبندي فى شبابه كثير الأسفار ، ومن ذلك أنه سافر إلى الهند بقصد التجارة عام ١٣٤٢ هـ ، وهناك هاجت به الأشواق إلى المدينة فقال :

وكيف وصولى نحوكُمْ سادةَ الحِمى
وشتان ما بين المدينـةِ والهنـد

رعَى الله أياما تقضّتْ بطيبـةٍ
وليلاتِ أُنْسٍ فى نعيم وفى سَعْد

لقد برّحَ الشّوقُ الأليم بجسمـه
فأضْحَى خيالا لا يُعِيدُ ولا يُبْدي

فطوبى لمن قدْ بات فى الجزْع هانئا
وَوَاراحَتَا لِلْوالِه الصَّبِّ فى الهند

والشوق إلى المدينة باب واسع فى الشعر ، ولكنه يكاد ينحصر فى ثلاثة أبواب وهى تشوق المسلمين إلى زيارتها والظفر بالصلاة فى مسجدها الشريف والامتزاج بعبير القداسات فى رحابها الطاهرة ، ثم تشوق أبنائها

الراحلين عنها كما فى قصيدتنا هذه ، ولعل من أروعه شعر الشاعر الأموي أبو قطيفة ، الذي من شعره فيها قصيدته التى منها :

القصرُ فالنخل فالجماءُ بينهمـــا

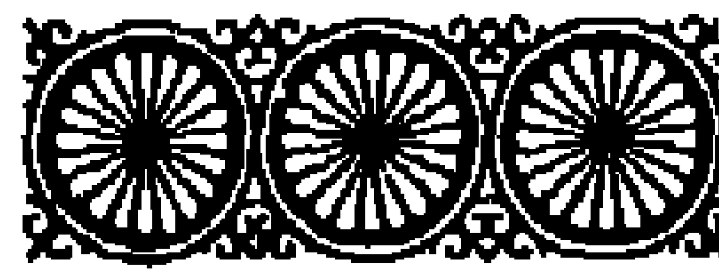
أشهى إلى النفس من أبوابجيرون

ثم تشوقات المتصوفة ، على نحو ما فعل البوصيري والبرعى وغيرهما .

ولقصيدة النقشبندي دلالة تاريخية واضحة ، وهى أن أبناء هذه المملكة قبل أن يُجري الله الخير فيها على يد آل سعود ، وتظهر منابع البترول وغيره ، كانوا يضطرون فى كثير من الأحيان إلى ممارسة التجارة ومختلف الأعمال فى البلاد المجاورة ، ويعودون منها بالخير الوفير .

وبعد فإنه يمكننا أن نقدر شعر النقشبندي إذا علمنا أنه رجل لم يتخرج من جامعة ولم تتح له فرصة

الانفتاح على الثقافات الأخرى ، وإنما هى الدراسة المتقطعة فى العلوم التقليدية ، والاقتصار على الثقافة القديمة والمجهود الشخصى ، وهو على كل حال شاعر حاول أن يشترك فى كثير من أحداث بلاده ، ويعبر بالكلمة المنغمة عن مشاعره نحو دينه وأمته وقادته وأصدقائه وخلانه ، وكان فى كل ذلك صادق القول وافر العدة ظاهر الوفاء فهو الصادق الوفى الأمين .



محمد هاشم رشيد

فى سبتمبر سنة ١٩٣٢ ميلادية ولدت جمعية أدبية كان لها شأن كبير بعد ذلك فى دنيا الشعر وعالم الأدب عموما ، لا فى مصر وحدها بل فى جميع أنحاء العالم العربى . لم يكن عملها قاصرا على إنشاء الشعر وممارسته ، بل تعدته إلى تذوقه ونقده ، وتدبيج المقالات الضافيه حوله . ولم تقصر نشاطها على مصر ، بل تبنت كثيرا من الشعراء الشباب آنذاك فى العالم العربى من السودان وتونس وسوريا والعراق ، وحتى المملكة العربية السعودية ، أمثال محمد العامر الرميح الذي كان من أهم زملاء شاعرنا محمد هاشم رشيد ، تلكم هى جمعية أبولو الأدبية . التى يعتبر رائدها وصاحب فكرتها هو الدكتور أحمد زكى أبو شادي .

وكان من أبرز أعضائها شعراء ثبتت أقدامهم فى أرض الشعر ومحاريب الجمال ، وتأصلت عبقرياتهم فى الفن والإبداع ، من أولئك الشعراء : الدكتور إبراهيم

ناجى ، والمهندس على محمود طه ، اللذان غنيا الحياة والطبيعة والحب والألم والحزن فى رومانسية حالمة ، وسكبا من أوتار قيثارتيهما أرق الأنغام وأعذب الألحان فنحا نحوهما ناشئة الشعر وساروا على خطاهما فى رهان .

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك روافد أخرى أمدت الشعر العربى بكثير من الطاقات الحية والنماذج الجديدة المتطورة ،استفادت منها جماعة أبولو نفسها ،هناك نموذج الشعر الغربى الذي تلقاه شعراؤنا ومنهم محمد هاشم رشيد عن طريق ما ترجم من روائع القصائد لبعض الشعراء العالميين وبخاصة الفرنسيين ، وهو نموذج لم يكن للشعر العربى به عهد ، ولا عرفه بنوه الأقدمون . وهناك ما كان يكتبه شعراءُ المهجر مثل جبران وأبى ماضى ونعيمة ... من شعر راق استلهم فى كثير من جوانبه المنزع الرومانسى الغربى ، وأقبل على الطبيعة يستوحيها ويشخصها ويمتزج بها ويتغنى بغاباتها وسهولها ووديانها وجبالها وكل مظاهرها ، كما أكثر من التأمل الواسع

فى الحياة واستبطان أسرارها والتغلغل فى شكوى آلامها وشرورها ، فى نظرة سادية أحيانا ، وفى موقف تمردي ـ أحيانا أخري ـ يدعو إلى الإقبال على الشهوات وإرواء الملذات إلى الصبابة والسؤار .

وأتباع المذهب الرومانسى من الشعراء وإن استطاعوا أن يقدموا تجارب فنية وضروبا من الإبداع فى القصيدة العربية شكلا ومضمونا ، وأمكنهم أن يرسموا عن طريق التعبير الموسيقى الموحى لوحات خصبة تفوق فى كثير من الأحيان لوحات الرسامين ، فإن ما يمكن أن يؤاخذوا به أنهم كانوا يعيشون فى ذاتية مفرطة ، يصورون آلامهم لا آلام مواطنيهم ومجتمعاتهم ، ويحلمون بآمالهم لا بآمال أمتهم وإخوانهم ، وبذلك عزلوا الشعر عن المجتمع ووضعوا أنفسهم فى قواقع مخملية ، نشاوى بالحب والآلام والرؤى والأحلام وقلما استطاعوا أن يفلتوا من شرانق قواقعهم ليشتركوا

فى أحداث بلادهم ويعيشوا واقع أمتهم ، كما فعل علي محمود طه فى قصيدته عن فلسطين التى منها :

أخى جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفدا

وفى قصيدته التى كتبها بمناسبة إنشاء الجامعة العربية عام ١٩٤٥ م والتى يقول فيها :

بَنِي العروبةِ دارَ الدهر واختلفتْ عليكمو غير شتّى وأرزاءْ

وشاعرنا محمد هاشم رشيد يمثل الوجه الرومانسى للشعر فى هذه الديار ، وهو صاحب ديوان (وراء السراب) الذي قدمه لقرائه عام ١٩٥٣ م واستقبله عدد كبير من الأدباء والنقاد بكثير من الإعجاب والتقدير ، باعتبار أنه يمثل اتجاها خاصا ولونا جديدا فى بيئتنا الأدبية خليقا بأن يحمد وأن يصفق له إعجابا وطربا ، كأنه كان على موعد مع الشعراء الرومانسيين فى البلاد العربية الأخري . ولشاعرنا محمد هاشم رشيد دواوين

أخري معدة للطبع منها : على ضفاف العقيق ـ على أطلال أرم ـ فى ظلال السماء ـ على دروب الشمس[1] .

والذي يقرأ شعره تطالعه أحيانا من خلاله قسمات الشابىّ وناجى وعلى محمود طه ، من ألفاظ موسيقية حالمة وعبارات مضيئة راقصة ، وخيال مجنح محلق فى أجواء عبقة بالحب ممزوجة بالشكوى والأنين ، مدثرة بالحيرة واليأس والإحساس الدائم بالحرمان ، كما تجد عند شاعرنا التمرد على القوالب الشعرية الرتيبة وإن لم يخرج إلى شعر التفعلية إلا غراراً ، بل اكتفى بتنويع القوافى وتوزيع التفعيلات فى أسلوب يشبه الموشحات ، والمراوحة بين القوافى والمزاوجة بينها ، ورغم أن الشعر الغنائى كما يقول الدكتور محمد مندور لا يخضع لهندسة التفكير العضوي المسلسلة أو الترتيب

---

(١) أصدر نادى المدينة المنورة الادبى للشاعر ديوانين هما : على دروب الشمس ، وفى ظلال السماء كما أن ديوانه الثالث (على ضفاف العقيق) ماثل للطبع .

المنطقى المخطط لأنه دفقات شعورية ودفعات وجدانية لا تعترف بالتحكم أو التنسيق ، فإن من أهم ما يميز شعر محمد هاشم رشيد هو الوحدة العضوية المتكاملة فى قصائده ، لأنها تكون قائمة فى الغالب على الروح القصصى ، وهذا لا مناص له فيه من التلاحم والترابط العضوي المكين .

ومن نماذج شعره الحي قصيدته التى تحمل عنوان (صوت الماضى) التى يقول فيها :

أنـــا فى الطريــــــق

أمشى على خطو القمر والأفــق ينبض بالصُّور

والليل يهمس بالذكر ويقول لى : حان المقر

فهنـــــا العقيـــــق

هذا ثراه . ألا تراه ؟ والطِّيبُ ينفح من رباه ؟

وهنا تضمُّك ضفَّتــاه لتغوصَ فى سرِّ الحياة

وأنـــا غريــق

أطفو على موج القـــرون
وتسير بي لجَجُ الظنون
حيرى.. فأصرخُ: مَنْ أكون ؟
أنا في مدى الوادي الحنون ؟

أمَـــلِي بَريـــــق

لم يبق منه سوي ضباب ورؤاي مَهْـزلةُ السّراب
وهوايَ أوهــامُ الشباب وأعــود أُصْغى للعباب

فإذا العقيـــــق

يَروي على سمع الصخورِ
أمجادنا . . عَبْرَ العصورِ
فيضمّنى طوفانُ نُــور
ورؤى غدٍ ، عذبٍ طَهورِ
حـــلوِ البريــقْ
مثـــل العقيــقْ . .

هذه القصيدة تؤكد نزعته التجديدية بكل ما فى كلمة تجديد من معنى ، وحتى ما فى قوله (حان المقر) من فقدان لروح الشاعرية ، لا يكاد يحس به القارىء فى غمرة الصور المجنحة التى جعل فيها الأفق ينبض بالصور والذكريات ، يهمس بها الليل فى أذنيك على خطوات القمر الحالم .

إنك فى شعر محمد هاشم رشيد تنتقل من صورة جميلة إلى صورة أجمل تملك عليك مشاعرك وتغرق حواسك كلها فى جو صوفى ممتع لذيذ ، وتجد نفسك أمام أشرطة من التعبير المتدفق القائم على مناجاة الطبيعة وعرض مشاهدها الفاغمة بالعطر والطيوب ، حيث تبعث فيها ريشته الفذة الحياة والحركة فتؤدي وظائفها التى يسندها هو لها ، لا التى أسندها إليها الواقع ، فضفاف العقيق متهللة تضمك لتغوص فى سر الحياة ، وللقرون أمواج ، وللظنون لجج ، والعباب واع وقور ، يرسل الحكمة وينطق بما يعيد للشاعر

إيمانه ويدفع عنه ظنونه ، ويعطيه الثقة فى نفسه لمواصلة المسير . ولنقف قليلا عند قوله :

وأعود أصغى للعباب
فإذا العقيــق
يَروي على سمع الصخورِ
أمجادَنا عبْرَ العصورِ
فيضمُّنى طوفانُ نــورِ
ورؤى غدٍ ، عذبٍ طهور

فهنا تنتفى حيرة الشاعر وينتهى ضياعه ، ويرتبط بماضيه العربى الإسلامى المجيد ، ويتعلق بمستقبله الباسم الطهور.

وفى سنة ١٣٨٤ هـ انتقل الشاعر من مسقط رأسه المدينة المنورة ليعمل بصفة مؤقتة فى الرياض بالإذاعة عند افتتاحها ، ثم يعود إلى المدينة المنورة ، فصور مشاعره فى قصيدة بعنوان (الرياض) . يقول :

كان حلمًا أن أراها وأري دنيــا هــواها
والتقينا . . أيّ حــلم ضلّ من قلبي . . وتاها؟

لم أكن أعرف أنِّي
كلما أترعتُ دنِّي
وتوهمــــت بأنِّـــى
لم أزل حولَ حمــاها أملًا . . ضلَّ . . وتاها
ذكرياتي . . وخيــالي
قد تلاشت فى الظلالِ
عبْر ألوان الجمــــال
فى الروابى . . والتـــلال
فطوى قلبي . . ثراها وتغـنّى . . ثم تاها
أي ذكرى ؟ أيّ ماض؟
طاف بي عبــر الرياض
أيّ إرهاص انتفــــاض ؟
لغــد رهــن المخـــاض ؟
راح يسري فى شــذاها ضمَّه قلبي . . وتاها
أي سحــــــر يتــراءي
فى روابيهــا الجميــلة

ملأ القلب انتشاء

فإذا القفر خميلة ؟

وإذا الماضي مع الحاضر نغمة روعت منها الدياجي المدلهمة

واستفاقت في الروابي الخضر أمة تصنع التاريخ في عزم وهمة

إن الشعر الجميل قد يصبح من الصعب تحليله تحليلا كاملا على الطريقة المدرسية ، لأن ذلك يسيء إلى وحدته ويخدش جماله ، كالزهرة التي تدعي أنك لا تدرك كنه جمالها إلا إذا فصلت أوراقها عن بعضها وبعثرت شذاها ، أية إساءة إذن نرتكبها بحق تلك الزهرة .؟ وأي قصور منا إذا كنا لانحس بجمالها إلا بعد أن نحيلها شظايا مبعثرة ؟ إننا نؤثر أن نترك القاريء مع هذه اللوحة للاستمتاع المباشر بما فيها من نغم وسحر وجلال . ففي الرياض تمت انتفاضة الملك عبد العزيز على الجهل والفرقة والتخلف . فأرسى بعودته إليها ظافرا دعائم المجد ، ومكن للخير والرفاه

أي ذكرى أي ماض

طاف بي عبر الرياض

أي إرهـاص إنتفـاض
لغـد رهن المخـاض
راح يَسري فى شذاها ضمّـه قلبي وتاها

والتقى الماضى بحاضر صنعته ريشة الملك الشهيد الراحل فيصل بن عبد العزيز فى رفق وحنان وحكمة ومهارة . عبر عنها شاعرنا بقوله :

وإذا الماضى مع الحاضر نغمة
رُوِّعت منها الدياجى المدلهمة
واستفاقت فى الروابي الخضر أُمّة
تصنع التاريخ فى عـزم وهمـة

والشاعر محمد هاشم رشيد مرتبط ببيئته الصغيرة (المدينة المنورة) كما رأيناه قبل قليل فى قصيدة (صوت الماضى) ، وكما يمكن أن نراه فى قصيدة أُخرى بعنوان (جبل أُحد) . ولكنه كشاعر مِفَنّ يحول هذا الارتباط بمسقط رأسه إلى ارتباط بالتراث الإسلامى الكبير وأمجاده الشامخة فيقول :

لقيتُ كنــز الحنــانِ   فى صــدرك الأُرجوانى

يا رمز مجد من بلادي انتشــرْ
يا جبلا يورق فيــه الحجَــرْ
ويصــدح الشوك بــه والزّهَــرْ
يا جبــلا أشعُــر فى قُربــهِ
بأنــنى أسكــن فى قلبـــــه
وأنــنى أتــرِع من حبــــه

كأسى ، وألقَى الأمانى   فى صدره الأُرجوانى

إذا التقينا . . وطواني العبيــــر
وعشت فى الحلم الكبير الكبير
أحس يا (أُحُــدُ) بقلبى يطير
على ربوع المجــد والمكرمات
على مغانى الشوق والذكريــات
على الربى الخضر بوادي (قنــاة)

على سطـــور الزمانِ   فى صدرك الأُرجوانى

هنــا على السفح المــديد . المديد

ينام فى ظلك أزكى شهيـــد
وحـــوله كل همــام . . مجيــد
رأى طيــوف الجِنان فى صدرك الأُرجوانى
فانقـــضَّ فى عنفـــــوان
لكى ينـــال الأَمـــانى

إنها نكهة خاصة فى شعر هاشم رشيد ، تشم فيها رائحة تراب المدينة المنورة وتغمرك قد اساتها ، وتشم فيها غبار المعارك الإسلامية الخالدة التى تعانق الآمال العربية الكبيرة الواسعة ، كل ذلك فى لغة موحية وتصوير حى للطبيعة والمواقف كأنك تراها وتسمعها ، وتعيش أحداثها ووقائعها .

وإذا كان الجيولوجيون والجغرافيون والمؤرخون قد تجوّلوا فى جبال السّراة واستطاعوا أن يتحدثوا عن جولاتهم فيها كل بحسبه ، وبقيت فى نظرهم تلك الجبال مجموعة من الصخور ، مسلوبة الحياة . عديمة المعانى فإن شاعرنا استطاع أن يبثّ فيها الحياة ، ويتخذ

منها رمزا لوحدة كيان وطننا المترامى الأطراف ، فيقول تحت عنوان . . (جبال السراة) :

عليكِ على القمة الشامخة
وقفتُ أطِلُّ على موطنى
فمن فوق ذروتك الباذخة
لقِيتُ بصدر الربى مأْمني
فحولك تغفو القُرى الوادعة
وتحـلم بالأمل المرتقـبْ
وترنو لك المـدنُ الرائعـة
وتُفضِى إليكِ بسر الحقب
وقفت عليك وفى أضلُـعى
أحِس بأنى أضمُّ الجزيرهْ
وأسمع صوتَكِ فى مسمـعى
يدمدم بالذكرياتِ النضيرة

فذكرى أراها بأرض الحجازِ
ترفرف فوق السهول الفساح
فأشعر بالفخر والاعتزازِ
وألثُم كلَّ الربى والبطـــاح
وأخرى بنجد تُوشِّى التــلال
وتغمر بالطيب آفاقهـا
فيسبح قلبي بفيض الجمـال
وتسكب روحىَ أشـواقها
وأبصرت فى الشرق من أرضنا
ملامح من غـدنا الأروع
ينابيـع خير ، ودنيا ســنى
تُفجِّرها قـدرةُ المبـــدع
وكم ذكريات لنا فى عسيرٍ
يُصفِّق نجدٌ لها والحجــاز
مرابعُ شعبٍ كبير . كبيرٍ
تحدَّى صروفَ الليــالى وفاز

ولا ينسى محمد هاشم رشيد أن يشترك فى ذكريات بلاده المجيدة ، وما أكثرها من ذكريات خالدة على مر العصور والأزمان ..! ، تبعث الثقة والاعتزاز ، فيقول :

ذكري وأيّ الذكريات كذكرياتك يا بلادي؟
يا مأرِز الإيمان ، يا مهد البطولة والرشاد
يا قبلة الدنيا ، ومنهل كلٍّ صادية وصاد
ورياضها الغنّاءُ . . تُلقى عندها أحلى مهاد
وأعز صرح للكفاح إذا دعا . . داعى الجهاد
ما زلتِ أرضَ المعجزات ، لدي الحواضر والبوادي
وحديثَ عالمنا الكبير . . برغم أحقاد الأعادي

ويقول عن هذه الذكريات الخالدة :

ذكري تتيه على الزمانِ شعت بأكرم مهرجانِ
ذكري البطولة . . والسماحة . . والندي والعنفوان

وكفاح شعب لا يطيـق العيشَ فى ظل الهـوان

متوقّد العزمات . . متّحـد الخطى . . صُلْب الكيان

ومن المآثر الكبيرة للملك فيصل - رحمه الله - وضعه الحجر الأَساسى للمكتبة العامة الكبرى بالمدينة المنورة (مكتبة الملك عبد العزيز) التى تتصدر شارع المناخة وتقابل المسجد النبوي الشريف ، كأَنها بذلك تربط بين الإيمان والعرفان ، وهو بلا شك رباط وثيق ووثيق . . وقد اشترك شاعرنا محمد هاشم فى الحفل الذي أُقيم بهذه المناسبة الكريمة ، بقصيدة طويلة منها :

يا ابنَ عبدِ العزيز هذا هو الحبّ

وهـذا نشيـدُه المستهامُ

إنه شعبُـك الوفىُّ بأَرض

فى رباها تأَلّقَ الإِسـلام

وتعـالت راياتُـه . . يتلاقى

حولها الحقُّ والهدى والسلام

أبصرتْ فيك مُذْ قدِمتَ إليها
ما طوته القــرونُ والأعوام
مِن شمــوخ مهلّلٍ وائتــلاقٍ
دون إشراقِ ومْضِهِ الصمصام
وطمــوحٍ مجنْــح ، ويقين
ليس يغريه زخرفٌ أو حطام
وإباء تندك شــمُّ الرواسي
وهو لا ينحنى ولا يستضام

ولمحمد هاشم رشيد فى المناسبات أشعار كثيرة يخلد بها موقفا مخلصا أو ذكرى حميدة ، ويُحْيِي بها الأمجاد والطموحات ، أو يقدم من خلالها صورا للبطولة والأبطال . وشعر المناسبات على هذا النحو يعد من الشعر فى الذؤابة ويحتل فى أنماطه أسمى مكان وأسناه .

والشاعر محمد هشم رشيد ذو قلب عامر بالتقوى ، زاخر بالإيمان بالله ، وهذا من أهم ما يميزه عن كثير من الشعراء الرومانسيين . ففى قصيدته (أمام البيت) يقول :

من كلِّ فجٍّ عميقٍ وكلِّ أُفقٍ سحيقِ
جئناك يا ربِّ فاملأْ أكوابنا بالرحيق
فنحن يا ربِّ ظمأى ظمأى لأُفقٍ طليق
لموجة من ضياء في مهرجان الشروق
لِصبٍّ من حنان يُطفي بقايا الحريق

* * *

جئناك يا رب نشوى بومضة من بريق
بنفحة من عبير تدفقت في العروق
فهام كلُّ محبٍ وتاه كل مشوق

* * *

لبيك يا رب إنا من كل فج عميق
جئنا إليك شعوبا من ألف ألف طريق
فزال حين التقينا ما بيننا من فروق
فلا تدعنا ، فريقا لا ينتمى لفريق
بل موكبا مستفيقا مع السنى المستفيق
فاليوم نحن عرفنا معنى الإخاء الحقيقى

لقد لخص الشاعر فى هذه القصيدة العديد من المعانى الإسلامية الرائعة التى تتحقق أمام البيت العتيق ، حيث يعرف الناس معنى الإخاء الحقيقى وتزول الفوارق ، ويتذكرون أن جميعهم لآدم وآدم من تراب ، كما يتذكروون أنه لا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوي ، هكذا علمنا الإسلام وهكذا يجب أن نكون .

ولا ينسى محمد هاشم رشيد أيضا قلبه وهواه ، ونبضات وجدانه بالحب وتحايا الجمال ، فيقول بعنوان (فى الطريق) :

أختاه حسبُكِ لا تثوري ... لاتطفئى وَهِجى ونوري
لا تغمضى عينيك عن ... أَلَقِ الطهارة فى شعوري
فأنـــا هنـــــــــا ... قلب يوشحـه المنى
لمَـــحَ المُـــــنَى ... فى ناظريك فأذعنا
لما رأيتك فى الطريـــق ... تمشين فى زهو أنيق
بخطًى كأنسام الصَّبا ... فى موكب الفجر الطليق
تتطلعيـــنْ ..

للأُفـــق لا للعابرينْ

وعلى الجبين ..

أبصـــرتُ مالا تدركينْ

أبصرتُ خلفَ الرونقِ صوَرَ الغـد المتألق

وملامحـا .. وضاءة لرؤى الصباح المشرق

فى مـوطـــــــنى حيث النواصي والجباه

لا تنحــــــنى إلا لمن وهَبَ الحيـاه

فعشقتُ فيكِ غدي الحبيب

ومرابع الوادي الخصيـب

وشذا العبير بموطـنى فى كل سهل أو كثيب

وعلى الطـريق

أبصرت شعبي يستفيق ويسيرُ مثلكِ فى الطريق

فى هذه القصيدة نضع النقط على الحروف بالنسبة لبعض أشعاره التى نبا فيها عن واقعه ، وراح يتلمس صوره الشعرية من واقع قراءاته لبعض من ذكرنا أساءهم من شعراء الرومانسية العرب ، وإلا فأية فتاة هذه التى

يتحدث عنها الشاعر كأنها تسير فى شوارع القاهرة أو بيروت ، أو فى أي مكان آخر غير هذا البلد الذي أراد الشاعر أن يوهمنا أنه استمد منه تجربته :

لما رأيتُك فى الطريق — تمشين فى زهو أنيق
بخطًى كأنسام الصَّبا — فى موكب الفجر الطليق
تتطلعيــن — للأُفــق لا للعابرين
وعلى الجبين — أبصرتُ ما لا تدركين

إن أحلام اليقظة ضرورية لكل فنان ، وعامل من عوامل إبداعه ، ولكن بشرط أن لا تشطح به عن واقعه وتهيم به فى عالم الأوهام . ولنا أن نقول إن الشاعر فى الواقع هو مزيج من قراءاته وتأملاته وانفعالاته ومعاناته ، مزيج عبقري ساحر فى فنية وروعة وأصالة وكذلك هاشم رشيد .

ولكم يهزنى هنا الربط القوي الأخاذ الذي صنعه الشاعر بين حرية انطلاق حبيبته ، وحرية صباح موطنه وانطلاقه واندفاعه المؤمن لتحقيق آماله وأمانيه .

وفى ٢٥-٤-١٣٩٥ هـ حظيت المدينة المنورة بزيارة قائدها البطل جلالة الملك خالد بن عبد العزيز وولى عهده الأمين سمو الأمير فهد بن عبد العزيز ، فيعبر الشاعر محمد هاشم رشيد عن فرحة اللقاء بقصيدة عنوانها [تحية المدينة المنورة] . ويقول :

خرجتْ مهلِّلةً بمقْدَم خالــد
تُزْجى تحيتَها لأكرمِ وافــد
وتطلعتْ فى يوم بيعتِهــا إلى
أمَلِ العروبة والكفاح الصامد
لأخٍ (لفيصلَ) سار فى آثاره
متتبعا ، سَنَن الفقيــد الخالد
ماض على نهج الكرام وحسبُــه
« عبد العزيز » الفذ أكرم والد
هى « طيبة » خرجت إليك وكلّها
نبضاتُ ألحانٍ ، وبَوْح قصائد

مسحتْ مدامعَها بحرقة وامقٍ ،
ويقينِ محتسب ، وعزمِ مجاهد
وأتَتْ تمدّ إليك كفَّ مبـايع
صُلْبِ العزيمة فيصليٍّ الساعد
فاسمع صدى الذكرى بكل ثنيّةٍ
ينساب بين معالم ، ومعاهد
وبكل رابية يفوح شموخُهـا
بعبير أَمجاد وطِيب أماجـد
وملاحم ما زال وقْدُ أُوارها
كالنار يعصف بالجهول الحاقد
ويقول للتاريخ : موعدُنا هنـا
فى أرض يعرب ، فى ثراها الصامد
فى ظل رايات الهدي قد رفرفَت
بتضامنٍ وتكاتُفٍ وتعاضـد
لتحقُّق الهدفَ الكبير لأُمـة
وضَعتْ زعامتها بكفّىْ خالد

وبكفِّ فهد فى ولاية عهـده
أقوىَ نصيرٍ للبلاد مسـاند
وإلى الأمام بنا لأكرمِ غاية
فى ظل عهدٍ مستنير راشـد
لنعيد للإسلام زهو شمـوخه
بطريف مجْدٍ يستعـزّ بتالد

وبعد فإن الشاعر محمد هاشم رشيد شاعر تعتز به دوحة الشعر والأدب فى هذه البلاد وتفاخر به . ولو أتيح لشعره أن يصل إلى الأقطار العربية الشقيقة لدوّت شهرته فى الآفاق ، ولعلم الناس حينئذ أن بلادا أنجبت قديما امرىء القيس وقيس بن الخطيم وعمر ابن أبى ربيعة والأحوص وغيرهم لم تعقم ، ولا يزال فى مكنتها أن تنجب محمد هاشم رشيد وأمثال محمد هاشم رشيد .

ابراهيم المحمد الدامغ

عنيزة أو باريس نجد كما كان يسميها الأديب العربى الكبير الراحل أمين الريحانى ، أمدت روضة الأدب فى العصر الحديث بمجموعة رائعة من بلابل الشعر وعناديله ، طروبة اللحن شجية النغم بديعة الترديد ، تغنت هذه المجموعة بشعرها فى وقت مبكر نسبيا ، من هذه الحقبة التى عادت فيها الحياة قوية إلى هذه الديار ، فكان شعرها بذلك لسانا معبرا عن الوثبة ، وحداء لقافلة البعث والإحياء ، ولحنا شرودا فى أذن الليل ، ومن تلك المجموعة الشاعرة كان الشاعر إبراهيم المحمد المدامغ ، ففى سنة ١٣٥٧ هـ نعمت عنيزة باستقباله وليدا ، وودعته بعد ذلك إلى الرياض شاعرا ، ليواصل دراسته الجامعية ، حيث ظل ينشر أشعاره فى صحيفة اليمامة وغيرها ، ويواكب النضال العربى والإسلامى فى جميع أقطار العروبة وديار الإسلام ، ويتخذ من مشاكل عصره وقضايا الإنسانية مواضيع

لشعره ، ويصور العواطف الإنسانية أجمل تصوير ، ويغنّى البطولة الوطنية أجمل غناء ، كانت تزدهيه المواقف البطولية الرائعة فى البلاد العربية الشقيقة التى منيت بالاستعمار وصارعت البغى والمعتدين ، وصبرت وصابرت حتى نالت استقلالها ظافرة منصورة بفضل الله ، ثم بفضل المخلصين من أبنائها والداعمين لجهادها من الأشقاء . وقد وعى التاريخ الوطنى العربى للمملكة فى ذلك صولات وجولات .

يقول شاعرنا الدامغ بلسان العربى فى كل مكان :

شاقنى الخلْدُ فامتطيتُ الغماما
وعلى النجم قد عشقْتُ المقاما
ومن العز قد نسجْت إهـابى
ولدى النور سوف أُرْوِي السلاما
أنا بالخلد خالدٌ عــــربى
أنطقتْ آيُهُ الجمادَ فهاما

وتروّت على نـــداه الأمـــانى

باسماتٍ – ويا لَهُن – ابتساما

وإذا كان شاعرنا قد وفق فعلا فى اختيار المطلع ، وأودعه كثيرا من مقومات القوة والجمال ، الكفيلة بشد القلوب والأسماع ، فإنه لم يمض فى قصيدته على نهج سواء ، بل كانت مزيجا من الانحدارات والارتفعات إلى حد كبير يثير الغرابة أحيانا ، وهى ظاهرة لمستها فيما أمكننى الحصول عليه من أشعار قليلة له ، وقد تكون هذه النماذج القليلة التى اعتمدت عليها فى الكتابة حول هذا الشاعر لا تؤهلنا لإعطاء حكم نهائى فى تفسير هذه الظاهرة ، ومع ذلك فقد يكون من المناسب أن نعزوها إلى واحد من أمرين ، أو إليهما معا:

أولهما : إصراره البيِّن على الإطالة فى قصائده ، بشكل زائد عن أفكاره (والألفاظ إنما جعلت معارض للمعانى وأوعية لها ، تعيبها الزيادة ويشنأُها النقصان) .

وثانيهما : أنه قد يجوز أن تكون النماذج التى بين أيدينا من أشعاره المبكرة. ولا يطالب شاعر فى باكورة أشعاره بأكثر من المستوي المتاح .

ونستمر معه بعد هذا فى استعراض بعض أبيات هذه القصيدة فنجده يقول على لسان الإنسان العربى :

أنا للمجد كاهل سوف يبــقى
فى فم الدهر بسمةً واحتشــاما

وينيرُ الطريق فى كل درب
ويضيءُ الوجودَ هديا مُقاما

وتهادتْ بشائرُ النــور تُهْدي
أمة العُــرْب إلْفَــةً ووئاما

واشرأبّتْ خواطرُ العــز نشوي
فتجلّت عقيــدةً وذماما

سوف أحيــا مظفرا وبكفّى
صارِمُ الحدِّ إن أرادوا انتقاما

سوف أحيا ومن ورائى أُلوفٌ
سوف تبنى على النجيع الدعاما
ونداءاتُ أمتى سـوف تبقى
أبدَ الدهـر موئلا واعتصاما
والهتـافاتُ فى سمـاء بنيهـا
سوف تبنى بظلهـا الآجـاما

ثم يتوجه الشاعر بالنداء الحار إلى الأُمة العربية جميعا يستنهضها ويستثير حماس بنيها ، ويذكرهم بما حققه الغرب من قوة ، وينبههم إلى ما يستره من نوايا سيئة ، وما يبيته لهم من شر وكراهية فيقول :

يا بنى العُرْبِ والمنى زاهيـاتٌ
حطموا القيد واسترقُّوا اللجاما
فمن العار أن نظلَّ ونبـقى
طعمةَ الغدر فُرقةً وانقساما
أدرك الغربُ أننا سوف نحيـا
ورأى الشرق سلْمنا والسلاما

فاستهامت غرائز الشـرِّ فيهمْ

قاذفاتٍ جنـــادلًا ورجاما

ونستطيع أن نعد الشعر الوطنى سمة من سمات شاعرنا الدامغ ، ومسارا بارزا لقصائده لا يمكن أن يعبره دارس شعره ، دون أن يقف معه وقفة طويلة مستأنية ، وقد يكون هذا الاتجاه هو الغالب على شعراء الشباب لدينا فى فترة نشاط شاعرنا الدامغ ، ذلك أن مثقفينا فى هذه الديار لم يعيشوا بمعزل عن القضايا العربية التى عاصروها ، ولم يصموا آذانهم عن صرخات التحرر والوطنية ، بل أسهموا فيها بفكرهم وأقلامهم ، وكان هواهم وقفا عليها . وكم وقفت المملكة حكومة وشعبا مؤيدة لتلك القضايا ، مدافعة عنها فى المحافل الدولية المختلفة . يقول شاعرنا فى كفاح الجزائر من قصيدة طويلة :

يا روابى الخُلدِ يا مهـدَ الأُباة الثائرينا

يا منارَ المجد والإشراق . قولى . . حديثنا

أيّ نورٍ فى رباكِ الخضــرِ تُهديه القرونا ؟
أيّ نبعٍ دافق الالهــام يعــلو مستبينــا ؟
أيّ عزٍّ فى ذراكِ الشمّ ســامٍ : خبرينــا ؟

* * *

يا بلادَ الزحفِ يا ركنَ الكفــاح الظافرِ
يا منارَ البعث يا نبــعَ الهتــافِ الهــادر
يا جــلالَ الثأرِ يا رمــزَ النضال القــادر
يا سماءَ المجــد يا مهدَ الشجــاع الصابرِ
هدهدي روحَ الفــدائىِّ الأبى النــــاذر
وارفــعى صــوتَ النــداءِ المستجابِ العابر
فقلوبُ الشعب شــعبي فى انطــلاق زاخر

وفى حرب بور سعيد له قصيدة بعنوان (موكب الحرية) منها :

عرش البقــاءِ عقيــدةٌ وفــداءُ
وفمُ الخــلود عزيمــةٌ وإبــاءُ

نحن الأُلَى سادوا فكان لِعزِّهمْ
سِفْـــر وضيءٌ خالــد لألاءُ
هذِي يدي للثأْر أَرفعُهـــا على
هام ِ العُــلا فتــؤمّها الجوزاءُ

ونلحظه هنا يبدأ قصيدته بالحكمة على طريقة بعض الشعراء العباسيين كالمتنبي ، وترفرف عليه روح شوقى فى قصيدتين مختلفتين ، فصدْر المطلع يذكرك بقول شوقى :

« إن الحياة عقيــدة وجهاد »

والعجز يذكرك بقوله فى همزيته الشهيرة :

« وفم الزمان تبسم وثنـــاءُ »

وما فعله شاعرنا هو نوع من الاحتذاء الجيد ، ولا يعد فى الغالب عيبا يؤاخذ الشاعر عليه .

ومن الأبيات التى جاشت فيها غوارب العاطفة الصادقة والإحساس اللاهب فى هذه القصيدة قوله :

أيّ نورٍ فى رباكِ الخضـرِ تُهديه القرونا ؟
أيّ نبعٍ دافق الالهـام يعـلو مستبينـا ؟
أي عزٍّ فى ذراكِ الشمّ ســامٍ : خبرينـا ؟

* * *

يا بلادَ الزحْفِ يا ركنَ الكفـاحِ الظافرِ
يا منارَ البعث يا نبـعَ الهتـافِ الهـادر
يا جـلالَ الثأرِ يا رمـزَ النضال القـادر
يا سماءَ المجـد يا مهدَ الشجـاع الصابرِ
هدهدي روحَ الفـدائىِّ الأَبى النــاذر
وارفـعى صـوتَ النـداءِ المستجابِ العابر
فقلوبُ الشعب شـعبى فى انطـلاق زاخر

وفى حرب بور سعيد له قصيدة بعنوان (موكب الحرية) منها :

عرش البقــاءِ عقيـدةٌ وفـداءُ
وفمُ الخـلود عزيمـةٌ وإبـاءُ

وكذلك نراه يقول فى قصيدة وطنية أخري عن فلسطين بعنوان « سنعود » :

يا منبعَ الإشراق فى قدسى الأَبىِّ المُعْرِقِ
هدهِدْ جروحك وانتظـرْ لابدّ يوما نلتقى
إنى لأفخر بالجلال . . جلالِ شعبي المحدِق
يجتاح أقزام الطغــاة ببعثه المتدفِّـــق

* * *

بالله للوطن الأَبى . . لشعبي الحــر المهيب
سنبدد المستعمــرين ونطرق الليل الرهيب
ونحرّر الأرض السليبةَ من سماسرة الشعوب
قسَمُ الأُباةِ ويا لَه قسَمٌ ستحضنُه القلوب

ولنرافق الشاعر فى مجال الشعر الذاتى الذي يتحدث فيه مباشرة عن همومه الخاصة ، ولابد أن نوطىء لذلك بما ذكره عنه صاحب كتاب (شعراءُ نجد المعاصرون) من أن شاعرنا هذا قد ولد وفى فمه ملعقة من حنظل ، وظل الألم ينوش جوانب حياته زمنا طويلا ، إذا

استحضرنا هذا فى ذهننا لم نستغرب روح البؤس والشقاء التى يزخر بها هذا النوع من شعره ففى قصيدته (مأتم السعد) يقول :

قالوا : بكيتَ فقلتُ الحزنُ أبكانى
والبؤس أَفْضَى إلى الأَسماع كتمانى

لا الأُنسُ يحمى فؤادي من كوامنه
ولا السرورُ على الأَيام يلقـــانى

كأَننى والأَمانى جــدٌّ غاربــةٍ
فى ساحةِ الموت مغمــورٌ بأَكفان

أسامر النجم علِّى فى مشـــــارفِه
أرى الجلال فأَنسَى بعض أحزانى

سلِ المواقف عنى فهى شاهــدةٌ
أنِّى بريءٌ ، وسَلْ شِعري وأوزانى

أنا الشقىُّ وعينُ الدهــر ترقبنى
وطالعُ النحسِ فى البأْساء يرعانى

فإن بكيتُ فما عيني بعاشقـــةٍ
حُورَ الحسانِ ، ولا قلبي بَولْهان

لكنَّ قلبي بنار اليأْس مضطـرمٌ
وخاطري من جحيم البؤس أضناني

ومهجتى فى ضرام الحزن ذائبـةٌ
مشبوبةُ الجُرحِ من تعس وحرمان

إنها صرخات نفس موجعة تشعر بالحرمان وتصلى نار البؤس . وتعيش فى متاهات الأَحزان ، ومن سوء حظ الشاعر أن يشقى ، ولكن من حسن طالع الشعر أن يتجرع الشعراءُ غصص الأَلم ، فالأَلم يفجر عبقرياتهم ، ويصقل تجاربهم ، ويؤهلهم للتعبير عن مآسى الحياة ومشاعر الناس .

فللحياة كما نعلم جانبان : جانب أسود يائس مظلم ، وآخر مشرق متفائل وضاءُ ، ولكل مذهب واتجاه ، ولعل الجانب الأَول هو الذي استوعب كثيرا من شعراء الجيل وسيطر عليهم ، حتى لا تكاد تظفر

بالتفاؤل والمتفائلين إلا قليلا ، أمثال إيليا أبو ماضي الذي حاول أن يودع فكرة التفاؤل كثيرا من قصائده كقــوله :

لِمَ تشتكي وتقولُ : إنك معدَمُ
والأرضُ ملكَكَ والسمــا والأنجمُ

وقــوله :

قال : الليــالى جرّعتــنى علْقما
قلت : ابتسمْ ولئن جرعْتَ العلقما
فلعلَّ غيرك إن رآك مرنّمــــا
طَرَح الكآبةَ جانبــا وترنّمــا
ياصاحِ لاخطرٌعلى شفتيك أن تتثلّما
والوجـــهِ أن يتحطّمـــا

وقــوله :

أيّهــذا الشــاكي وما بك داءٌ
كيف تغدو إذا غدوْتَ عليــلا

أيهـذا الشاكي وما بك داءٌ
كن جميــلا تريِ الوجــود جميلا

ويستمر شاعرنا الدامغ فى رحلة البؤس والشقاء ، فنقرأ له قصيدة أخري بعنوان : (شاعر البؤس) وواضح من خلال أبياتها أنه يعنى نفسه ويصور فؤاده الدامى ، ويندب حظه مع الحياة ، فيقول :

شاعرٌ خانــه الزمــانُ فغـنَّى
نايُــهُ الحُزْنَ للمســامع لحْنا
شــاعرٌ أحـرقَ الأسى شفتَيْـــه
فانطـوي لاهبَ الفــؤاد معنّى

* * *

شاعرٌ إن دجَى الظـــلامُ ترامتْ
حــولَه أبلـغُ المصــائب داءَ
شاعرٌ حطّـم الزمــانُ قُــواه
فارْتمَى يرشــف النّجيــعَ دواءَ

* * *

يرقب الفجــر فى وجوم طويلٍ
سارحَ الطــرف لا ينمُّ بنبْس
حظُّــه الوهْمُ والشقــا والتمنِّى
عيشُــه الحزن والأَسى والتأَسِّى

* * *

أيها الليــلُ أنت ســرٌّ بلائى
أَيها الليــل أنت رجْعُ نحيبي
أنتَ .. ما أنت؟ أَنت سرٌّ رهيب
فيك للقلب قاسيــاتُ الكروب

وهكذا يمضى متعثرا فى أحزانه باكيا نصيبه من الحياة ، لا يرى فيها مخرجا من بؤسه ، ولا بارقة لأَمل يخفف أعباءه ، ويبعث فى نفسه الهدوء والطمأْنينة ويُطمعه فى الوصول إلى شاطىء الأَمن والسلام ، فتظل الآلام تؤرقه وتطحن فؤاده ، وهو يسكب تلك الآلام أنينا وحنينا وأشواقا .

وهكذا نراه فى قصيدته الأخرى (يا نفس ماذا ترتجين) يقول :

يا نفسُ طيري للسماءِ وحلِّقى
وتطلَّبى أسبـابَها وتعلَّـقى

فالأَرض ضاقتْ من سنانكِ المشرِقِ
وتنكَّـرَتْ لِزُلالِك المتـدفِّق

فإلآمَ هذا الصبرُ يا نفسى الحَنونْ

ياصاحبي كيف الخلاصُ من الحياة
وبأيِّ لُجٍّ نعتلى سُفُنَ النجـاة

وإذا دفعناها وأرست فى الفلاة
ماذا.؟ أنلقى العيش أم نلقى الممات

يا حيرةَ الشاكى ويا يأْسَ الحزينْ

اللهَ ما أقسَى الحياةْ على الفقيرْ
يبكى ويصرخ ثم لا أحدٌ يُجير

ويُسامِرُ الظلماءَ مكسوفَ الضمير

يرنو إلى الآمال فى طرْفٍ كسير

مغرورقَ العينين . . معروقَ الجبين

إن الفقرَ إذا ألقى بكلاكله على قوم حطمهم ، وكان شرا مستطيرا ، واجتث آمالهم من القواعد ، فهو وحش فاغرٍ فاه أبدا لا يرحم ولا يهادن أو يلين ، والجِلادُ وحده يذلل كل عصى ويفتح كل مرتتج ، وقبله الإيمان العميق بالله ، والاعتقاد بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن الدنيا تسير فى نسق محكم وقدَرٍ عادل ، قد تهتز النفسُ ويرتاع الفؤاد ، فإذا ثاب العبد إلى حمى ربه نزل عليه اليقين ، وأدركته نفحات من الله

وما السعادة فى الدنيا سوى حلُمٍ

حتى إذا صارَ حقا ملّه البشرُ

حمد الحجي

من كان مثّالا أو رساما واتقدت حاسته الفنية فى يوم من الأيام ، وتطلعت لمشاهدة ملامح الحزن والألم والبؤس ، فما عليه سوى أن يقرأ قصائد شاعرنا حمد الحجى ليجد بغيته ويقع على ضالته ، يمسك بأزميله ومطرقته إن كان مثّالا ، ويحضر ألوانه وأدواته إن كان رساما ، ثم يقرأ تلك القصائد ، وأنا ضامن لهما أنهما سيقدمان نماذج رائعة من ذلك الفن المؤثر النابع من أعماق الحياة . . ولم يكن الحجى متصنعا فى بكائه ، مستعيرا قناع غيره ، كما يفعل بعض الشعراء ، بل هو شاعر يغترف من بؤس حياته وتعاسة دنياه ، ذلك البؤس وتلك التعاسة اللذان صبغا أيامه بجلباب حالك السواد ، وأصاباه بكثير من الاضطراب النفسى وكزازة الطبع وضيق المزاج ، واقتربا به من الشاعر العباسى المتشائم أبى العباس على بن جريج الرومى ، فقد روت كتب الأدب الكثير من تشاؤم نفسه واضطراب

مزاجه ، مما كان له الأثر الواضح على شعره وعلاقاته بالناس ، وسبّب له ولمن حوله سلسلة من المتاعب والحياة الضنكة . ومن أعماق النفس نستمع إلى الحجي يقول بعنوان « خلف المنظار الأسود » :

إن نظرتُ الجمال غضًّا طريًّا
يتجلَّى فى المنظـــر الخلَّابِ
لاحَ لى أسودَ المصير كمسودّ
الليـالى ، مكشّـرَ الأنيـاب
فرأيتُ الجمالَ يُطوَى بأكفان
ويَبْـلَى ممـزَّقَ الأسـلاب

يا لشقاوة نفس هذا الشاعر وسواد حظه من الحياة .!
إنه لا يعطى لنفسه فرصة الاستمتاع بما فى الحياة من جمال غض ناعم ، يتراءى له فى المنظر الجاذب الأخاذ ، وبدلا من أن يستغرق فيه بحواسه ويغترف منه اغتراف الوامق الولهان ، يذهب بفكره إلى مطافات الفناء والزوال ، وينغص ذلك المنظر على نفسه بأفكار نهايته

وتبعثره وزواله ، فيتصوره فانيا مطويا فى أكفان الزوال ، باليًا كنثارات على ظهر الطريق ، أو مزَقٍ من جسد ضحية بلهاء على أنياب وحش فرّاس .

وصدق أبو ماضى حين يقول :

إن شرَّ الجُناة فى الأرض نفسٌ
تتوقَّى قبلَ الرحيلِ : الرحيلا
والذي نفسُه بغيــر جمــالٍ
لا يرى فى الوجود شيئا جميلا

ويبدو لى أن الحساسية المفرطة لدى شاعرنا الحجى بـآلامه وآلام غيره هى وحدها سِرٌّ ما فى شعره من كآبة ساحقة . ويسترسل فى إبراز هذا الموقف بصور مختلفة فيقــول :

وإذا ما الحيــاةُ قلبىَ يــوما
فرّحتـــه بزورة الأَحبـــاب
أيقنتْ نفـــسىَ الفراقَ طويلا
ورأيتُ الوصــال مثلَ السراب

وبعد مقطع جميل تحدث فيه عن الندامى وأدوات الخيَّام يقول :

هكذا كنت فى حيـاتى عُجابًا
يا لقَلبى من هول هذا العجاب
ألْحَظُّ القاتمَ المرير من العيش
وأبكى على الضيـاء الخابى
وإذا لاح لى البهـاءُ وضيئا
قلت : يا دهرُ ليس ذا من حسابى
وإذا أُعجِـبَ الأنـامُ بشىء
بِتُّ منه فى موقف المرتـاب

ويزيد هذا الاتجاه وضوحا فى المقطع التالى ، كأنه يحس أن الألفاظ تعجز عن نقل الابتئاس والحرمان ، فيعود لتأكيد ما فى نفسه بمختلف الصور والأساليب :

هكذا أصْحبُ الحياة : فـؤادي
فى عنـاء ، وللشَّقا ذو تَصاب

لا أرى البرقَ فى السحاب ضَحو
كًا وبأُذنى بكاءُ رعْــد السحاب
أتركُ الزهرَ فى الروابى وأرْنــو
نحو جاثى الصخور تحتَ الروابى
إنْ تغنَّت حمامةٌ مِلتُ عنهـــا
ثم أرهفتُ مِسْمــعى للغُراب
لا أرى حُمــرةَ الورود ويُدْمِى
شوكُها أنمُلى كوخــزِ الحِراب
لا أرى فى الهضــاب إلَّا وحوشا
أين منى ما يزْدهى فى الهضاب

ففؤاده فى عناءٍ دَائم وشقاءٍ لازم . يتجه دائما لإدراك الجوانب السود من الأَشياءِ ، فالبروق الضاحكةُ فوق قمم الغيوم بضيائها الراقص ، لا تحرك فى داخله أيًّ معنى ، ولا تهزُّ بواطنَ نفسه بل يرى فيه بكاءَ الرعود ونواحها الدامى النحيب . والزهورُ المتفتحة فى الروابى لا تجذبه بمنظرها الخلاب وعبيرها الفواح ،

بل يُعرض عنها ليشاهد الصخور السود الجاثية تحت الروابي فى جدب وقحط واندحار ، والحمائم بغنائها الشجىّ لا ترهف سمعه ولا تذكى فؤاده ، فيصم دونها أذنيه ليسمع نعيق البوم وتنعاب الغربان . . إنه صورة للعذاب ومُجسّمٌ للشقاء يجد فى الشعر متنفّسه الوحيد فيلجأُ إليه يبثه لوعته ويرسل فى حروفه شكواه .

وبعنوان « أمانى » يكشف الحجّى عن بعض أسباب شقاوة نفسه ، فهو بالإضافة إلى التفكير فى همومه الخاصة ، يحمل على كاهله هموم الآخرين ، ويتمنى لو استطاع أن يقدم لهم شيئا ، ويفكر فى شعبه وأمجاده ، يقــول :

كم تمنّيت أننى بسمــةٌ فى خاطر
البــائس القَنــــوطِ الكابى
أو منامٌ يَمْحــو سهــادَ الثكالى
واليتــامى والمبتــلَى باكتئاب

أو ضياءٌ ينيــر للشعب سبلَ الخـ
يْرِ ، يدعو إلى ارتكاب الصعاب
لبنــاءِ الأمجاد تسمــو وتُودِي
بالخــرافات والأذى والْعــاب
لدخولِ الحياة من بابهــا الفضِّـ
ـيِّ نحـــو الآمـــالِ والآراب
كي نرى الشعب بين ساعٍ دءوبٍ
أو مُعــنًّى بالفكــر والآداب

وفى صوفيَّة حالمة تتطلع للخالق والشعاع المذاب والغيم والضباب والحقول والأعشاب يقول الحجى :

لو ملكتُ القُوى لرحتُ بعيــدا
وتساميتُ فى الشعــاع المــذاب
أو توجّهت نحو خالقى الأعظمِ
أو ذبتُ فى كثيــفِ الضبــاب
أو غدوتُ الحقلَ الجميلَ تبــدَّ
ى دافقَ النــور ، ناضرَ الأعشاب

أو صحبتُ النجـــم اللموع جلّتهُ

ظلمةُ الليل ساطعاً فى اضطراب

لو ملكتُ القُوى لحقّقتُ آمالى

وأزجيْتُ نحـــوهنَّ ركابى

وهو فى قصيدته (فى زُمرة السعداءِ) يناقش موضوع شقاوته وسعادة الآخرين ، ويُلقى الأَسئلة العديدة التى تدل على المرارة العميقة : لماذا يسعد غيره وينال مايشتهى فى هذه الحياه ؟ بينما هو يعيش فى براثن الأَحزان ، مع أنه لا يختلف عنهم فى الخلقة والذكاءِ والهمة ، ليس به عىٌّ فى النطق ولا عجز فى الرأْي والعزيمة ، فيقـــول :

– أأبقى على مَرِّ الجديدين فى جوى

ويسعـــد أقـــوامٌ وهمْ نظــــرائى

ألستُ أخاهمْ قد فُطـــرنا سويّةً

فكيف أتانى فى الحيـــاة شقائى ؟

أرى خلقهمْ مثلى وخَلْقىَ مثلهمْ
وما قصَّرتْ بى همتى وذكائى

يسيرون فى درب الحياة ضواحكا
على حين دمعى ابتلَّ منه ردائى

أكان لسانى إنْ نطقتُ ملَعثما
وكانوا إذا ناجَوْا من الفصحاء .؟

وكنتُ إذا مّا أشكلَ الأمرُ عاجزا
وكانوا لدى الجُلّى من الحكماء .؟

كأنما يريد أن ينسب شقاوته لمجرد الحظ ، وهو بلا شك هروب من مواجهة مشاكله ، وفى رأيى أن المشاكل يجب أن تعالج بالمواجهة الصحيحة الشجاعة والبحث عن أسبابها الحقيقية مهما كانت مُرّة ، أما محاولة إلقاء المسئولية على الظروف الخارجية فإنه لا يزيد المشكلة إلا تعقيدا ، ويمكّنها من الاستمرار والتضخم والاستشراء .

وفى رأيى أيضا أن الطموح من عوامل البناء لدى الفرد والجماعة ، وأحلامَ اليقظة منبعُ من منابع الخلق والإبداع عند الفنان وأمر لازم لحياته الفنية ، يرود به عوالم الخيال ، ولكن يجب أن يكون كل ذلك محدودا بوظيفته وقدرته على العطاء ، وإلا أصبح الطموح عامل هدم وتعويق ، وتحولت أحلام اليقظة إلى مرض خطير يعرفه علماءُ النفس بالعصاب أوالذّهانى ، فالشكوى من واقع ما ، والطموح إلى تغييره لا تعنى أن يفقد الإنسان التفكير فى وسائله وإمكاناته وإسقاط المنطق من الحساب . وإلا أصبح الأمر كمن يريد من الأشياء غير طبائعها ، ومن الأسباب غير نتائجها ، وذلك وضع غير طبيعى على كل حال .

ويعزو الحجى بعض حالات شقائه إلى تفكيره الطويل فى مظاهر الكون ، بينما غيره من نظرائه السعداء لم يكلفوا أنفسهم ذلك التفكير ، بل اكتفوا بالنظرة السطحية العابرة فيقول :

وهمْ نظروا فى الكون نظرةَ عابرٍ
يمر على الأشيــاء دون عنــاء
وأصبحت فى هذي الحياة مفكرا
فجانبْتُ فيها لذّتى وهنـــائى
ومن يُطِلِ التفكير يومًا بما أرى
من الناس لم يرتح ونال جزائى

ويقرّ فى آخر قصيدته هذه بأن التفاؤل وحده هو مفتاح السعادة فيقول :

تغنّى على الدوح الوريق حمامةٌ
فيحسبُه المحزونُ لحنَ بكاء
وتبكى على الغصن الرطيبِ يظنُّ
ها حليفُ الهَنا تُشْجِى الورى بغناء
ألا إنما صفْوُ الحياة تفاؤلٌ
تفاءلْ تعِشْ فى زمرة السعــداء

وليت شاعرنا الحجى نبذ التشاؤم جانبا وتفاءل فعاش هانئا فى زمرة السعداء ، ويهمنا أن نشير إلى أنه

جمع وصْفَ المذكر بضاحك ، على : ضواحك ، وذلك غير سليم من الناحية الصرفية ، فضواحك جمع ضاحكة كشاعرة وشواعر وكاتبة وكواتب وليست جمعا للمذكر ، وذلك فى قوله :

يسيرون فى درب الحياة ضواحكا
على حين دمعى ابتلّ منه ردائى

كما استعمل كلمة سويّة بمعنى سواء ، فى قوله : ألستُ أخاهم قد فُطرنا سويّة ، وذلك لا يستقيم لغويا .

وينتزع الحجى نفسه أحيانا من محيط الشقاء فينظر إلى الدنيا بعين البهجة والمتعة ، وذلك عندما يتغزل ، ولكنه لا يستطيع أن يحلّق فى شعره إلىالمستوى الذي شاهدناه فى الاتجاه الآخر ، فهو يقول بعنوان « إلى باعث الشكوى » :

أيا باعث الشكوى بنفْسِى ألمْ يحِنْ
لقاءٌ لكيلا تستبــدّ بىَ الشكــوي

بكيتُ ولوْ أنى على الصبر قادر
كتمتُ ، ولكنّى على الصبر لاأقوي
لقد ذقت منك الحبَّ مرًّا مذاقُه
وإنى لأَرجو أَن تصيِّره حـلوا
فإن كنتُ للذنب الجليل مقارفا
فآمل منك اليومَ عمَّا مضى عَفْوا
فلوْ أن جثمانا تقطَّع بالجـوي
لما أبقتِ الأَشواقُ منى ولا عضوا

إن دموعه تتساقط على خديه حتى فى غزله والشكوى لا تفارق قلبه ، والمرارة تلازم مذاقه وتطحن نفسه ، والأَشواق تسحق قواه ، وهو ينهج منهجا تقليديا حين يتقدم إلى محبوبه خانعا ذليلا قد تَبَلَّهُ الحب وتيمه ، وجعله يطلب العفو والتغاضى عن الذنوب ويختم هذه المقطوعة بقوله :

سكنَّا بقَرْوَى والحبيبُ جـوارنا
فلله مغْنَى قد سكنَّاه فى قَـرْوَى

وكنتُ أظنُّ الوجد شيئا مُيَسَّرا
فأمسى بروحى عاصف الوجد قد ألْوَى

وقروي المذكورة هنا هى حى من أحياء الطائف معروف ، ولعل ذكرها يكشف عن الجانب الواقعى للنص : وبعنوان فتنة يقول :

أيا فتنـــة العاشق المستهـامِ
أترضَيْـــنَ لى سيِّءَ المنقلَـبْ

تذكَّرتُ خديْكِ عنـد الـورود
فهــاجَ الفؤادُ أسىً واضطرَبْ

وهبَّ النسيـم بعطـرِ الزهـورِ
فجاءَ برياكِ لى حيـنَ هَب

وما نفحـةٌ من شـذاكِ الحبيبِ
كنفح الزهـــور وعطرِ العَلَب

سأحفـظ حُبَّكِ فى مهجـــتى
وأُودِعُه صفحـاتِ الكُتُب

ليقـرأه النـاسُ والمغْرَمُـون

فيدرُون ماذا يلاقى المحـب

لست أدري كيف يضطرب الفؤاد لتذكر الخدين وتهتاج أحزانه ، بينما كان المتوقع العكس تماماً ، كما أن كلمة العلب فى قوله (عطر العلب) كلمة غير شاعرية ، وليس فى القصيدة أي تصوير يستحق التسجيل ، وهذا يؤكد ما قلته قبل قليل من أن غزل الحجى أقل مستوى من شعره فى الأغراض الأخرى ، وليست هناك غرابة أن يجيد الشاعر فى غرض شعري دون آخر ، ومن ناحية أخرى قد يكون للحجى نماذج غزلية ، غير التى أوردناها تدعو إلى معاودة الحكم .

وللحجى مشاركات اجتماعية وطنية جيدة ، تعطى صورة لإخلاصه وتطلعاته وإحساسه بالمواطنة الصالحة ، ومن ذلك قصيدته التى نظمها بعنوان (تحية الطباعة) بمناسبة اشتغال مطابع الرياض وطبعها صحيفة اليمامة ، وبعض الكتب ، والتى يقول فيها :

برزَتْ فكانت دهشةَ الأَبصــار
بشعــاعها المتــلألىء الأَنــــوار
عامان ما مضيــا على إيجــادَها
حتى استحــالت مُنْيــةَ النُّظَّــارَ
تلك الطباعةُ وافِها يا صــاحبِي
بتحيـــة نفّاحــةٍ معطـــار
واطلَعْ عليها فى الرياض لكى ترى
عجبا من الإبــداع والإكبـــار
أَحيا الثقافة عنـــدنا ما قدّمَتْ
من خــدمة للعــلم والأَفــكار

إن من حق الحجى أن يفرح بمقدم الطباعة إلى الرياض بعد أن لم يكن لها بها عهد ، تلك بحق بداية فكرية تحضن الحاضر وتحيي القديم ، وتواكب النهضة الشاملة لهذه المنطقة ، التى صمم القائمون على أمرها أن يدخلوا معركة التطور والأَخذ بأَسباب العلم والحضارة المعاصرة ، وأي شيء كالطباعة يمكنه أن

ينهض بهذه المهمة ويحقق هاتيك الأهداف ؟ ثم يدعو الحجى أغنياء بلاده إلى البذل والإنفاق فى أوجه الخير والبناء ، كتأسيس المصانع وإقامة المعامل ، ليشتركوا بذلك فى تقدم البلاد ورفع قدرها بين الشعوب . يقول :

يا أغنيــاء بلادنا أبصــرتموا
إن الفضيــلة كَسبُ كلِّ فخار
فإذا رأيتُمْ ذاكَ كيف تكالُبٌ
منكم على الدِّرْهــامِ والدينــار
هيّا انفقوها فى ارتفاع بــلادكمْ
فى مصنــع أو معمــلٍ أو دار
حتّى ترَوْا أن الذي انفقتمــوا
ينمــو نُمــوَّ النبت والأشجــار

ثم يستعرض بعض مظاهر الحضارة الحديثة التى لا تقل فى عظمتها وقيمتها عن مستوى الطباعة ، والتى تشترك جميعها فى خدمة الإنسان وتسهيل وسائل حياته ،

حتى أصبحت تمثل جزأ لا ينفصل عن وجوده فى العصر الحديث ، فيقول :

ما كان يخطــر بالفؤاد وحَدْسِه
أنَّ الأَثيــر يجيئ بالأَخبـــار
أَوْ أنَّ إنسانا يطيـــر محلقا
حتى يصيــرَ مشاركَ الأَطيــار
أَوْ أنَّ ينبـــوع الحضارة روحُها
مخبوءةٌ فى الكهــرباء الســاري

ويغتنم هذه الفرصة ليوجه شباب أُمته إلى قيمة العلم فى الحياة المعاصرة ويدعوهم إلى الانتهال من من مناهله ، وشغل أوقاتهم بتحصيله والدأب فى طلبه واستكشاف مخبآته ، فعليه قامت الحضارة وبه تسود الشعوب . يقول :

العلم يخطــو بالشعوب لأَنــه
يهديهمــو لجــلائل الآثــار

ويُميط عن وجه الخفيِّ قناعَه

حتى يُرَى كالصبح فى الإسفار

ويحقق الأمل البعيدَ مرامُه

حتى يعودَ حقيقة كنهار

إن لم نكن بالعلم نشغلُ وقتنا

وحياتنا ، ما قيمة الأعمار .؟

وفى سنة ١٣٧٥ هـ تم افتتاح جامعة الرياض ، وهز هذا الحدث الضخم فى تاريخ بلدنا الحبيب مشاعر الحجى ، فانطلق يهزج بالشعر ويغرد فى موكب الإحياء والبعث ، ويسمع الأكوان ألحانَ أفراحه دون قيود أو حدود ، وتصفق روحه لهذا الحدث العظيم فيقول :

فى موكب البعث غنِّ الشعر تغريدا

وأرسلِ اللحن فى دنياك ترديدا

وأسمِع الكون أنغاما مرتَّلَة

وامنَحْ خيالك أُفْقا ليس محدودا

فقد رأيتَ بأرض العُـرب جامعةً
قد شيّدوها على الإيمـان تشييدا
تُلقِّن العلم تبغى رفعَ مشعـلِه
لتبعث الفكرَ إيجادا وتجـديدا
والناسُ تُضْحِي لهم مصباحَ داجيةٍ
ومنهلا للشبـاب الحى مـورودا
هذي الشواهدُ أنَّا سَيْـرُنا أَمَمٌ
ولم نعد نستسيغُ العلم تقـليدا
ما نام قوم وشادوا صـرح مملكة
ولا تَوانَىَ فتى قـد رام تسـويدا
والعلم يخلق للأقطـار نهضتها
ويورث الفرْدَ تكريما وتخليـدا

بقى أنْ نقول : إن شاعرنا حمد الحجى من مواليد عام ١٣٥٧ هـ ببلدة (مَرَاتْ) من إقليم الوشم ، وإنه

من خريجى كلية الشريعة بالرياض ، شق طريقه وسط الأشواك والصخور ، فلم تفتر له همة ولم تَهِن له عزيمة ، ولكنه وسط هذا الحشد من المصائب والنكبات التى اعترضت طموحاته ، لم يستطع أن يقف وحيدا طول الوقت ، ولا يزال فى حاجة إلى النظرة المشجعة واليد العطوف والصدر الرحيم فهو شاعر حساس مجيد تعتز به عرائس وادي عبقر .

عثمان بن سيار

مدرسة دار التوحيد ، هذه القلعة العلمية الشامخة ، غذت المملكة بكثير من رجالاتها فى الأدب والعلم الدينى وعلوم العربية ، وقدمت إليها فى الوقت المناسب مجموعة من العاملين فى مختلف الحقول ، وبذلك حققت ما عقده عليها مؤسسها جلالة المغفور له الملك عبد العزيز من آمال ، واختار لها الطائف مكانا وسطا لتقدم خدماتها العلمية لأكبر عدد ممكن من أبناء هذه المملكة المترامية الأطراف ، على قلة فى المدارس وجدب فى المقبلين عليها وعلى ما فيها من العلم ، وقد كان شاعرنا الأستاذ عثمان بن سيار من الشعراء الذين أنجبتهم هذه المدرسة العظيمة ، وتفتحت شاعريتهم فى أفنائها الرحبة الواسعة ، الناعمة بأنفاس هواء الطائف العليل وأعطار طبيعته الساحرة الخلوب ، ولد شاعرنا على ضفاف وادي المشقر بالمجمعة عام ١٣٤٨ ﻫ وترعرعت ثقافته واكتملت شاعريته على

ضفاف وادي وج والمثنى ، وكل تلك الديار كانت ولا تزال مربعا للشعر والشعراء .

وكانت مدرسة دار التوحيد إبان دراسة شاعرنا فيها تهتم كثيرا بإقامة الحفلات والمحاضرات والأسمار والندوات الأدبية ، يشترك فيها نخبة من الشباب المتوثب الطموح تحت توجيه ثلة من المدرسين الأدباء ، ومن شعر عثمان بن سيار فى تلك المناسبات قصيدة بعنوان (بشرى وأمل) ، نظمها كما يبدو بمناسبة افتتاح النادي الأدبى بالدار ، يقول فيها :

رجِّعِ البشرى فقد نلتَ الوطرْ
وابتسم جذلان فى اليوم الأغر
أيّ بشرى تلك..؟ ما أروعها .!
حركت من كل وجـدان وتر
أشرقت كالشمس فى ضحْوتها
فهفا كلُّ فـؤاد ، وخطـــر

ومشينـــا فى اعتـــزام صـــــادق

نَنْشـــد الآمال سيـــرَ المنتصر

ليس منا من تشكّى نصبـــــــا

فى سبيل العلم أو طولَ السهر

لا . . ولا من هاب ادلاجَ السُّرى

أو ثنَى منْ عزمه حـــدُّ الضجر

ولا شك أن صور الأوتار المتناغمة فى الوجدانات المستبشرة قد نجح الشاعر فى تقديمها ، ولكن الأبيات الأخرى لم تخل من اضطرارات وزنية أدت إلى اجتلاب فواصل واعتراضات لابد من الاستعانة عليها بأدوات الترقيم حتى لا يتعثر الذهن فى فهمها ، ولكن الأبيات فى عمومها تعبر عن عزيمة صادقة فى طلب العلم لا تعرف الكلال ، ولا تعبأ بسهر أو طول مسير ، ورغبةً من السيار فى شحذ الهمم وبعث الثقة فى نفوس أبناء أمته عاد يحدثهم عن الجدود وما حققوه من مجد وفخار ،

ويعقد مقارنة بين ذلك الماضى الباذخ للأمة الإسلامية والحاضر الذليل الذي يعيشه الخلف ، يقول :

يا شبابا عرفَ المجدُ له
همةً لم يَثنها بُعْدُ الوطر
وجدودا أشرق الدهرُ بهم
وتغنّى الشرق حينا ، وافتخر
يوم هزوا علَم التوحيد فاهتزّت الدنيا ، وعجت بالزَّهَر
ما لأوطانك قدرٌ إنْ علت
أُفْقها ظلمةُ ليلٍ معتكر
أَيها النَّشْءَ الطموح المرتجَى لأَمانى وطن يهوى الظَّفر

ثم ينبه النشءَ والأُمة العربية جميعا إلى ما يفعله الغرب فى ديارها من عبث بمقدراتها ، وأَنه سبقنا بعلمه ويقظته حين جهلنا ونمنا ، فيقول عنه :

سامَ فى روضك لم تحفل به
يجتنى ما طاب من حُلْو الثَّمر

وانتضى صارمَــهُ فى ساعــة

نمت فيها وتغشّاك الخــــوَر

ومضى فى كل حين يجتــلى

من جديد العلم ما يُعيِي البشَرْ

فلِمَ اخترتَ التوانى راضيــــا

بحياة الهون ما بين الحُفَــر

ويتوجه بعد ذلك إلى النادي الأَدبى بالتحية ، والحق يقال ، إنّ النوادي الأَدبية المدرسية ، كانت تؤدي دورا كبيرا فى تنشيط أَذهان المجتمع الطلابى وتوجيهه إلى « الاغتراف من مناهل العلم والأَدب ، ففيها كانت تتكشف المواهب ، وتلتقى الأَفكار الطرية الشابة بالعقول الصلبة الناضجة ، فيكون من كل أُولئك خير كثير . يقول السيار :

أيها النادي الذي هــزّت به

الدّارُ عِطْفا ، وسمت فوق الزُّهر

تِهْ بهذا الحشد من كل فــتى سعْيُه نحوك فضلٌ يُذَّكر

بل هوىً فى كل نفس قادها

لترى شمسَ النهوض المزدهر

ولنستاف عبيرا ، فاغمـــاً

من رياض العلم ، نفَّاحا عَطِر

فلنسر صفا إلى آمالنـــــا

قُدُمًا ، والفوزُ عقبى مَنْ صبر

وإيمان شاعرنا عثمان السيار بالشباب ليس له حدود ، فهو الذي يحطم بعزائمه القيود ، وينير بإشراقاته الفكرية حوالك الجهالات وظلمات الأيام ، وهو الذي يعيد للأوطان كراماتها ، ويوحد كلمتها ، ويدعم صفوفها المتناثرة . فالشباب على هذا الأساس ثروة للأمة ، به تسمو وتنال عزتها وتحقق أمانيها ، يقــول :

حَيِّ عنِّى الشباب إمَّا تسامَى

قوةٌ تحطِّمُ القيودَ اعتزامـا

قبسٌ إن دجا الزمان وسلْــوى
وطنٍ كاد أن يَهُون مقــــاما
عاش ماعاش مستنيما ،خليّ البال ،
فى أُمة تضــجُّ اختصــــاما
آن أنْ ينفض الجفونَ عن السه
د وأنْ يُشْرِع البيانَ حســاما
كلما ازداد فى الحياة مُضيًّــا
جددت نفسُه الطُّمــوحُ مراما
كلمــا شــام بارقا من أمــانى
شعْبِه : ازداد عــزمةً واحتداما
بين جنبيــه خافق يتنــــزّى
وبعينيــه ثــورةٌ لن تنــــاما

إن السيار لم يعتمد على الصور الخيالية بقدر اعتماده على الإنسجام اللفظى والتدفق العاطفى ، الذي يخالط النفس ويتمازج بمشاعرها ، لتتأثر بالفكرة وتؤمن بالمضمون .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « إلى الشباب » يعود إلى طرح فكرته وإجلاء منزعه ، فهو يرى واقعا أليما تضافرت عوامل كثيرة على رسم معالمه السود ، وتحديد خطواته الدامية ، فما السبيل لإنهاء تلك الأوضاع . ؟ ومن الذي يتحمل أعباء الخلاص . ؟ إنه فى نظره الشباب ولا شىء غير الشباب ، ولعل هذه المبالغة من الشاعر فى الاعتماد على الشباب نابعة من التحفز النفسى والتوثب الروحى ، أما نحن فنقول مع معروف الرصافى:

إن التجاربَ للشيــوخ وإنمــا

أملُ البلاد يكون فى شبّـانها

وبذلك يتحقق التوازن الضروري ، ونستفيد من رصانة الشيوخ وتجاربهم ، واندفاع الشباب وتحمسهم ، ولنستمع إلى السيار فى هذه القصيدة يقول :

أعيدوا إلى الأُفُـقِ المظـــلمِ

سنا الشمس أو روعةَ الأنجمِ

وبُثُّوا بأرجائه صيحةً
تُطيرُ السُّباتَ عن النَّوم
فقد أوشك القومُ أن يَهْلكوا
بوادٍ كأفكارهمْ مُبْهمِ
سرَتْ فى ثنياه شُرْسُ الوحوش
وذَلَّ أخو الضعفِ للضّيْغم
وزمجر كلٌّ أخى نعمةٍ
على كل ذي فاقةٍ مُعدَم
تُفتِّش فيه على نابِه
فتُصْدَمُ بالغِرِّ والمجرم

وأول ملاحظة نسجلها حول هذه الأبيات هى التفاته البين فيها إلى عنصر الخيال ، شأن الشاعر المكتمل الأدوات ، مما يحدو بى إلى القول بأنه نظمها فى مراحل نضجه الأدبى ، فإعادة سنى الشمس وروعة النجوم إلى أفق الوطن المظلم ، ثم الوادي المبهم والوحوش الشرسة ، وزمجرة أخى النعمة كل أولئك تصوير رائع وفن

أصيل ، واستغلال جيد لما حوله للتعبير عن أفكاره وهذا النمط من التعبير نجده أيضا فى بقية أبيات القصيدة . يقول :

إليكم شبابَ البلادِ الغيورَ
تلفَّتَ قلبُ البلاد الظَّمِى

لقد لفحتْه شموسُ الهجيرِ
وأضناه سوطُ الشقا المؤلمِ

لكُمْ موطنُ أيقظتْه الحياةُ
على كونها المائج المضْرَمَ

رأى فيكمُ همةَ المنقذينَ
أغَذُّوا إلى الهدَفِ المعْلَم

فأشرقَ مبسمُهُ مذ أطلّتْ
عليه جموعُكمُ ترتمى

وكم هازيءٍ باعتزام الشباب
سيدركه فى الغدِ المعْتَم

فيعلم أن الشبـــاب الطموحَ

به نهضـــةُ الوطنِ المقـــدِم

ولعلنا فى البيت الأول هنا نلحظ أثرا لقراءاته فى الشعر العباسى ، يتجلّى فى صورة « تلفُّت القلب » يقول الشريف الرضيّ :

وتلفتَـــتْ عيــنى فمُـــذْ خفِيَتْ

عنى الطلولُ تلفّـــتَ القلبُ

ويقـــول السيار :

إليكم شبابَ البلاد الغيورَ تلفت قلبُ البــلاد الظمِى

وللسيار أيضا اتجاه فى أشعاره إلى التأمل والنجوى ، ولكنَّ نفُسَه فى هذا المنحى قصير ، وأفكاره ينقصها العمق والأصالة والتجربة المتكاملة ، وقد نظلمه فى هذا الحكم إلى حد مَّا ، إذا اعتمدنا فيه على قصيدة واحدة لأن الشاعر لم يصدر[1] مجموعة شعرية كاملة يمكن الرجوع إليها ، يقول بعنوان (يا ليل) :

(١) صدر للشاعر اثناء طباعة هذا الكتاب مجموعة شعرية بعنوان (ترانيم واله) وهى مجموعة غزلية .

تجاهلتَ يا ليــل آلامِيَــهْ

وأنكرتَ سُهْـــدي وأشجانيهْ

فأطبقتَ فى حلكــة قاسيـــهْ

كأنك بيـن الــورى طاغيه

يحاول إخمــادَ أنفاسيه

نجـوم تصارعُ فيــك الظلام

وأفئــدةٌ مثلُهــا لا تنــام

وأنت على الكل ســوطُ احتكام

عنيــدٌ ، فما ترهب الانتقــام

ولا جولَة الشفــق الثانيهْ

لكَمْ فيك يا ليلُ من موجَــعٍ

يضيق به كنفُ المضجـــــع

وفدتَ بأشجــانه ، أجمـــعِ

فحركت فى صــــــدره المتْرَع

عواصفَ آلامِهِ العاتيــه

ولعل من أجمل مقاطع هذه القصيدة قوله :

تساءلتُ والشمس نحـو المغيب
تمدُّ يـدا خُضِّبتْ باللهيـب
أما يسمع الليلُ هـذا النحيب
فينزع هـذا القنـاعَ الرهيب
ويرحم أحلامنـا الزاهيه
أجاب شعـاعٌ بنفسى يقـول :
ألا إنها حكمة لن تـزول
ظلام يكرُّ ، ونـور يصـول
وبينهمـا أملٌ لا يحـول
تظل إليه النُّهى جاريـه

وقرب مدينة الهفوف تقع أربعة جبال يقصدها الناس للنزهة أيام الربيع ، فهى من متنفّسات تلك المدينة . ومن الأماكن التى يرتادونها لقضاءعطلة الأسبوع وأيام الأعياد ، اهتزت نفس الشاعر لها ، وارتبطت مشاعره الرقيقة بروابيها الخضر وأنسامها

العليلة ، وملكت أحاسيس الشاعر الهضابُ المزهوة بكثبانها الذهبية ، النشوى بأنغام الغدران المنطرحة على صدرها فى صفاء وإلف وحنان ،تزيدها خضرة النخيل روعة وجمالا ، يقول السيار بعنوان « فى ظلال الربيع »:

بين كثيب الرمل والأربـــع
ألقِ عصـــا التسيـــار ، واستمتعِ
وامرح كما تهـــوَى فإن الربى
تمرح فى ظل الصَّبـــا المُمْـــرع
أغصانُهـــا ميـــاسة تزدهـــى
وطيـــرها يشـــدو ، أصِغْ واسمَع
وسرِّح الطرف فهـــذي الرؤى
من رائع الحســـن إلى أروع
أنســـامها فاغمـــةٌ تبعـــث الرو
حَ لقلـــب بالفَـــلا مولَـــع
شتَّى ضـــروب الحســـن مجلوةٌ
بين كثيـــب الرمـــل والأربـــع

فاطْرَحْ ثقيلَ الهمّ فى سفحها
وناغهـا فى جـذَلٍ وارتـع

إذا كان الشاعر دعانا فى الأبيات السابقة إلى الاستمتاع بمحاسن الطبيعة تحت ظلال الأربع ، بل دعانا إلى أن نتـرك وقارنا وننسى همـومنا ونرقص ونمرح فى أعراس الطبيعة ، فإنه أيضا لم يترك الجانب التأملي الذي أشرنا إليه قبل قليل ، وما أحسن أن يجمع المرء فى إهاب واحـد بين المتعة النفسية والمتعـة الذهنية يقول :

هنا جلال الكون يتـلو على
سمعِ اللبيـب قـدرةَ المبـدع
سفْـرٌ بـه الآيات مسطـورةٌ
فى نسـق يخلُب لبًّـا يَعِـى
فالهضبة الشماءُ تحنو على السهل بظل وارف مُشْرَع
سال على أقدامها الرملُ كالابريز ، فاختالت على الأربع

ترنو إلى الكثبان مزهوةً
كما رنا مُثرٍ إلى مُدْقَع
وترسل العبرةَ للمجتلى
عن غابر الدهر ، وما تَدَّعى
وللغدير صفحةٌ مازها
بمثلها ماءٌ ، ولم يَسْطع
والنخلُ كالدَّأْماء مخضوضِرٌ
يطاولُ الهضبة بالأَذرع
كأنما رامَ لها زورةً
فالتفَّ لم يُقْدِمْ ، ولم يَرْجِع

إن هذا المقطع فى الواقع لوحةٌ فنية فيه كثير من دقة التصوير وروعة الكلمة ، وبخاصة صورة مطاولة النخل للهضبة بأَذرعه كمن رام زيارتها ، ثم التف دون تراجع أَو إقدام :

والنخل كالدأْماء مخضوضر
يطاول الهضبة بالأَذرع

كأنمـــا رام لهـــا زورة

فالتف لم يقــدم ولم يرجع

ولشاعرنا عثمان بن سيار شعر عاطفى ، لا يقل قيمة من الناحية الفنية عن مستواه الشعري العام ، يزخر بالصدق والرقة والافتنان يقول :

تعـــالِ أحـــدثكَ يا نافـــرُ

حـــديث الهـــوى إنه آسرُ

لقد طال نأيُكَ حـــتى ذوى

بروحيَ حـــلمُ اللقـــا الناضرُ

تعـــالِ إليّ فكـــم ضمّـــنى

وضمكَ تحـــت الدّجى خاطر

أعانـــق منـــه طيـــوفَ الرجـــا

كما عانـــق الزهـــرة الطائر

لا شك أنه أراد كما تعانق الزهرة الفراشة ، ولكن القافية جعلت الفراشة طائرا فغضت من وهج الصورة ، ويختمها بقوله :

إلىَّ حبيبيَ في لهفـــة
يُؤرِّثها النظـرُ العابر
وللوجد في خافقي ثورةٌ
وهل يهدأ الخافقُ الثائر
وهل يستطيبُ نعيمَ الجمال
، أخو صَبْوة جَدُّهُ عاثر ؟
فمنك لحوني وقيثارتي
ومن حسنك الشعرُ والشاعر

وإذا بدا السيار عاشقا متهالكا في القصيدة السابقة ، فإننا نجده في قصيدة أُخرى من عيون شعره ، يتأبَّى على الغانيات ويعرض عنهن في شموخ وكبرياء لأَن لديه ما يشغله ويشد تفكيره ومشاعره . ذلك هو الواقع العربي المرير ، من تأَخر وجمود وجهل واستخذاء للمستعمر ، وتبعية للغرب أَو الشرق ، فكرا ومنهج حياة . لم ينج من ذلك إلا من جعل الإسلام رائده والدين الحنيف قوام حياته ، وقليل ما هم أُولئك الرجال ، يقول السيار بعنوان « اعبسي أَو فابتسمي » :

اعبسي ما شئت أو فابتســمي
أنا عن حسنِكِ يا هنــدُ عَمِي
راعني حاضــرُ قومي فاعزُ بي
عن حمى قلب شجيٍّ مُغْتَــم
لم تعدْ تـأْسِرُهُ حمْــرُ الشفاه
ولا سحــرُ العيــون النــوَّم
لذَّ لي السهــدُ كأني موجَــعٌ
في الدجى ، يرقب مسرى الأنجم
أتمــلَّى العيــش قلبــا حائرا
بيــن تاريخٍ وضيء مغْــلم
وحيــاةٍ كُسِيتْ أرجــاؤها
بســواد كضميــر المجــرم
عصفتْ بي ذكــرياتي إنهــا
لَشُــواظٌ يتلــظَّى في دمي
كدت أن أوفىَ بالــروح إلى
هوَّة اليـأْس ودنيــا السأم

غيــر أنى عالــقٌ من أمــلى
بحبــال بعْــدُ لم تنفْصــم

ومن أبياتها الرائعة قوله فى الاستنهاض وبث الروح والحياة بين بنى قومه :

أمــةُ الــوحى وما أعظمهــا
تنشــر العلم بظــل العــلَم ..!
لَفّهــا ليــلُ التجــافى فــذوَى
غصنُهــا الزاكى بكفٍّ العدَم
وانطــوي السفر ســوى عنوانِه
ظلَّ فينــا كالأصــمِّ الأبكم
قم بنــا يا شهمُ نرفعْ حولها
(منبــرًا للسيــف أو للقلم)
حسبُنــا أن القــوافى سئمتْ
قبلنــا ترديدَ هــذا النغــم
كم تغنينــا بمــاضٍ مشــرق
وانثنينــــا بالأعادي نحتمى

أخياليـــون أم أدركنـــا
قـــدَرٌ من غضبـــة المنتقم

وبعد : فإن الشاعر عثمان بن سيار ممن استغرق خياتهم الوظيف ، والتهم وقتهم التهاما ، عمر به معاشهم وخسر به الشعر والفن بلبلا غريدا ، غنى الحياة أعذب الألحان وأصدق الأنغام ، فهز المشاعر وحرك الطباع وأطرب القلوب والأسماع ، ثم سكت فجأة فافتقدته سواجع الأطيار فى نجوى الأسحار ، وخلت الرياض من أغانيه ألحسان، فلها به شغف وبأشعاره تحنان ، فهل ترد أصداؤها شاعرنا السيار ..؟(١)

---

(١) وكأن الأصداء وصلت فعلا للشاعر ، فعاد ينشر أشعاره تحت توقيع (عميد) فى صحيفة الجزيرة ، كما نشر بعض قصائده فى مجلة الفيصل .

ماجد الحسيني

بمراجعتي لديوان (حيرة) الذي قدمه الشاعر ماجد الحسيني لمكتبتنا الشعرية منذ خمس عشرة سنة تقريبا وجدت أن الاسم منطبق على المسمى ، منسجم مع محتواه ، فالحيرة تطالعك فى كل قصيدة من قصائده وتبرز سماتها واضحة فى كل صفحاته . وقد قسم الشاعر ديوانه إلى أربع مجموعات أعطى لكل واحدة منها عنوانا خاصا وهى (أما قبل) ، (تأملات) ، (اجتماعيات) ، (مع الأهواء) .

ولم يكتب الشاعر لديوانه مقدمة نثرية تشرح وجهته ويتحدث فيها عن تجربته مع الشعر ، كما كان يفعل القرشي فى دواوينه العديدة – مثلا – ولم يستكتب لهذه المهمة أحدا كما يفعل بعض الشعراء ، ولعل ذلك راجع لعدم إيمانه بكتابة مثل تلك المقدمات ، أو لاعتقاده أن الدواوين الصغيرة لا تتسع لمثل ذلك ، أو لحيرته أيضا .

أما الاهداءُ فكان لأبيه وأمه براً بهما ، واعترافا بما أسديا إليه من جميل ، حيث قال : أما الاهداءُ فتلك سنة طيبة . . أما أنا فحائر حتى فى الاهداءِ ، فكُثْرٌ هُم الذين لهم عليّ مَنٌّ وفضل وغمرنى حنانهم ، ولا أقلّ ممن منحونى الحياة والوجود : أبى وأمى .

ومن هذا الاهداءِ تستطيع أن تستنبط مدى تعلق صاحبنا بالحياة ، فهو رجل يجعل وجوده فى عداد أفضال والديه عليه ، وهذا على خلاف نزعة شاعر المعرة الذي جعل وجوده جناية ارتكبها والده فى حقه ، حيث أمر أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى علىّ
وما جنيتُ على أحَد

ولئن فاتته التقدمة النثرية فإنه كتب مقدمة شعرية بعنوان (باقتى) منها :

باقتى هذه جمعتُ لها الزَّهر
وألقيتُ فوقها نارَ قلبى

وتعهــدتُها بدمــعىَ حــتى

خفَّ منها الأُوار بعد التأَبِّى

جاور الطهرُ عندها الرجسَ والبسمةُ الدمعَ ، هكذا كان حبى

فتنسمْ ما شئت من زهَــرانى

لستُ أدعــوك أن تقارف ذنبى

غير أنَّ الحياة والفنَّ أنْ تستافَها هكذا ـ وتأْتى بجنبى

لذَّةُ العيش فى اختلاف الأَمانى

بين صدق من الحياة وكِذْب

هكذا صاغها الإله وسَــوَّاها

فمن نحن . . صاح فى ملك ربى . . ؟

وهى تقدمة تعكس نفسا شاعرة تعشق التناقض ، وتتعلق بأَذيال الحيرة وتقبل على الحياة بواقعها كما هو ، دون بهرج أَو زيف ، فلذة العيش عنده لا تتمثل فى دنيا الزهر والأَحلام فقط ، بل هى أَيضا فى الأَلم

والحسرة والدموع ، وليست هى فى تحقيق كل الأماني والآمال :

لذة العيش فى اختلاف الأماني

بين صدق من الحيـــاة وكذب

ورغم التوفيق الفنّيَ الذي صاحب الحسيني فى هذه التقدمة فإننا نرى قوله « وتـأْتى بجنبي » خدشا أساءَ إلى جمال اللوحة ، لما فيه من سمات نثرية مبتذلة يقول :

غير أَن الحياة والفن أَن تستافها

هكذا وتـأْتى بجنبى

ويبدو فى بعض قصائد شاعرنا الحسينى ميلٌ إلى الحكمة ، وذلك يمكن اتخاذه دليلاعلى قراءة الشاعر فى الشعر الفلسفى والحِكْمى ، وبخاصة شعر حكيم المعرة أبي العلاءِ ، فهو يقول فى قصيدة له بعنوان « شعري » :

أُحمِّل عنى الشعرَ شكوى لواعجى

وأَسكب فيـــــه دمعـتى وأَنينى

وهل كان مثلُ الشعر سلوى لبا

ئس ونفثةَ مكروب ورجْعَ حزين

ثم يقــول :

وما الشعر إلا نبضةُ الروح حرةً

يترجمها عنهــا بيـــانٌ مبين

يصوِّر من أفراحهـا وشجـونها

ليحملَ للأكوان بعضَ فنــون

وتظهر نزعته الفلسفية بوضوح فى المجموعة الثانية من الديوان تحت عنوان « تأملات » ففى أول تلك المجموعة تواجهنا القصيدة التى أخذ منها اسم الديوان (حيرة) وفيها يتوجه الشاعر إلى الله فزعا من حيرته التى . . تضيق الخناق عليه ، وتنتصب له فى جميع دروبه كالمارد الجبار ، تهدد وجوده وتهز فكره بعنف ، فلا يجد وَزرًا يلوذ به غير حمى الله ، فيقول :

ربّاه حرتُ فخُذ إليك يدي

وأزِرْ لقلبي حلكةَ الحجُبِ

ما كنتُ ملتجئا إلى أحدِ
إلّاك ، فارحمني من النّصب
الكونُ هذا ، أنت منشئُه
آمنتُ يا ربّاه بالحق
يا هل ترى من أين بارقُهُ
قد شعّ عند بداية الخلق

* * *

قد أجهدتْ فكري الظنونُ ولم
أبرَحْ من الألغاز فى تِيهِ
حيث ابتدأتُ رجعتُ بعْدُ ولم
يُكشفْ لقلبي عن خوافيه

والحسيني يؤمن بأن العجز عن إدراك ذات الله إدراك ، وتلك عقيدة رصينة يتقلدها المسلم فتريح نفسه وتثلج صدره ، وتمنحه القوة وتكلل مسعاه بالنجاح وتوفر عليه كثيرا من الجهد الضائع والعنت الفكري

الزائد ، وضل أقوام أضاعوا أنفسهم وأضاعوا غيرهم بالبحث فى ذات الله ، يقول الحسينى :

وأهاب بى صوتٌ يزلزلُنى
ما للأَنام وسرٍّ خالقهمْ
أَيحاولُ الإنسانُ يَشهدنى
قد ضلّ ذا الإنسانُ حيث فهِمْ
عقليةُ الإنسان واهيةٌ
أُعطيه من سرِّي بمقياسِ
إن الكليمَ أَتته غاشيةٌ
فى الكشف ، كيف بحِلْف أَرجاس
النورُ منطِقُه بتَسليمِ
وتجردٌ من كلّ أدران . . .
متمنّعٌ عن كل تعليمِ
لكنه إشراقُ وجدانِ

و يلتقى الحسينى مع أبى العلاء وابن الرومى وفوزي معلوف فى بعض الأفكار عن ساعة ميلاد الطفل واستقباله

للحياة باكيا ، كأنما هو يعرف ما ينتظره فى هذه الدنيا من شقاءٍ وما فيها من إثم وخداع ، يقول الحسيني:

يولد الطفلُ ويأْتى للحياة
صارخا كالْمستغيثِ الخائفِ
فتحيّيه وجوهٌ وشفاه
باسماتٌ فَرَحًا بالهاتف
ما له يبكى ؟ فهل أَبْصَر ما
خبأَ الدهرُ له فى طيّه
أَوْ تُرَي استنكر هذا العالما
ورأي آثامه فى حيّه

ثم أشار إلى حقيقة ثابتة ، وهى أن الطفل يولد بذهن صاف وصفحة بيضاء ، ولكن من حوله هم الذين فى استطاعتهم أن يوجهوه إلى الخير أو الشر ، فهم المسؤولون عن جميع انحرافاته وشروره إن قدر له أن يعيش بعد ذلك شريرا :

ما جنى الطفل ولكنْ همْ جنَـوْا
خُلِقَ الطفــلُ نقيّــا طاهـرا

* * *

لو على الخير وحســنِ الشِّيــمِ
عــودوه ودَعَــوْه لاقتــدي
ثم قالوا : ليتــه فى الرِّمـــمِ
عنــدما قلَّــد ما منهــم بدا

* * *

عجبا يرجــون منــه غير ما
عــودوه ناشــئا فى الصِّغـــرِ
أكذا الإنســانُ يمـضى ظالمــا
لا يرى من عيـــبه المستنكر ؟

وله نظرات خاصة فى الكون والحياة والفن ، وهى فى الغالب نتيجة قرءاته المستمرة فى هذه المناحى وتفاعله مع الثقافات القديمة والوافدة ، ففى قصيدة له بعنوان (شاعر) يحاول أن يتحدث عن معاناة الشاعر ورقة

إحساسه وولعه بالطبيعة ، وعكوفه على ذاته يستلهمها ويستوحى مشاعرها فيقول :

هام بالـروض والزَّهَـرْ
والنُّسَيْمـات والسَّحَـرْ

شاطَـرَ الطيْـرَ لَهْـوَهَا
فى الأَمـاسِىِّ والبُكَـرْ

واصطفى الجدولَ الخَفوقَ
على شـاطىء نَضِـرْ

مفـردًا لا تَرُوعُـه
جفْـوةُ النـاس بالكَـدَرِ

ثم يجعله رفيقا للبدر والنجوم والنسائم ، وأخا للطير والشمس ، يتتبع مواطن الجمال فى الطبيعة ويستجلى مفاتنها ، ويسكب كل ذلك نغما ساحرا ولحنا شجيا ، وأخيرا يختم الحسينى هذه القصيدة بقـوله :

هكذا يعبـــر الحيـــاة

ويصفـــو له العُمُـــرْ

يُكَبِّــرُ اللهَ فى الجمـــال

وفى رافـــع القُـــدَرْ

ويتجه شاعرنا إلى اعتبار الطبيعة هى المحراب الأصيل للفنان ، منها يغترف ومنها يلون مشاعره وكلماته ، ولولاها لكان الشعر جلبة وضجيجا ، وألفاظا مرصوفة دون حياة ، لذلك نراه يصور الفنان فى قصيدة له بعنوان « الفن » إنسانا قابعا بين الخمائل والرياض فى زاوية هادئة ، أو واقفا على جدول جار ونبع رقراق ، ومع هذا الإيمان المطلق بأثر الطبيعة على الفن ، فإنه يؤمن بمصدر آخر يعتبره أعمق أثرا ، ذلكم هو الألم الذي يفجر الفن ويجلو العبقريات قال :

إنى أنا الفن ، وهذا الشَّجَنْ

له حيـــاتى وبه مَجْثَـــمى

إنّى لأرثى لك ياذا الفـتى

فمـن رآنى مرةً كان لى

ورحْتُ حيـــرانَ لهُ مُنْصتـا

فقـال : هيا غنّ لى واشْدُ لى

ما كنت أدري كيف صَوْغُ النَّغمْ

وكيف فى الناس تُغنَّى اللحونْ

ما بالُ قلبي خافقـا يضطـرِمْ

وكيف غنّيْتُ النشيدَ الْحنون

وله قصيدة بعنوان (فيلسوف) ، تحمل أيضا طابع الحيرة والضياع ، ومحاولة استكناه المجهول ، يقول واصفا هذا الفيلسوف الذي عجز عن إدراك بعض أسرار الحياة :

تحير لا يدري طريــقَ صـوابِهِ

وساءَل لا مَنْ يرتجِى لجـوابِهِ

تلوح له سبْلُ الهدى ثم تـختفى

فيخبط لا يدري طريقَ صوابه

وحيدا ولو أمسى من الناس مفرَدًا
على كتف المجهول مُبْتَنى سرابه
مضى يطلب السرَّ المحجَّب عنوةً
فضَّل ولم يملِكْ عنسانَ ركابه
ولجْ يؤُمُّ الغيبَ بين مجاهلٍ
فجُنَّ ولم يدرِك مفاتيحَ بابه
ومات ولم يدرِك من السرومضةً
تُراه سيجلو سرَّه فى ترابــه ؟

وإذا رأينا شاعرنا فى النصوص السابقة غارقا فى تأملاته المفعمة بالحيرة بين اتجاهين متناقضين ، وهما التشاؤم والشك والانقباض من جهة ، والتفاؤل واليقين والإقبال على الحياة بشراهة من جهة أُخرى ، فإننا نجده فى المجموعة الثالثة من الديوان واقعيا يعالج مشاكل مجتمعه ، ويتحدث عما يهم وطنه من قضايا ، ولعل من أجمل قصائد هذه المجموعة قصيدة « وطنى » التى يقول فيها :

رَوَّحاني بِشيحِهِ وبَشامِهْ
وانفحاني برَنْدِهِ وخزامه
تلك أزكى إليَّ من نفحات
مازجَتْه ولَّم تكن مِنْ خَرامه
وانزِلا بي أطلاله وصَحاراه
وأفياءَ ظلِّه في غمامه
تلك خيرٌ إلى عيوني مما
يُتباهَى في غيره بنظامه
واسكبا في مسامعي كلَّ حين
ما رواه التاريخُ عن أعلامه
تلك أندي على فؤاديَ وقْعا
من لحون الغريب أو أنغامه
إنَّه موطني نشأتُ بواديه
على خَيْره وفي إنعامه
يا بلادي بل يا فؤادي وياسرَّ
نشيدي والنور من إلهامه
بين جنبيَّ لاعجٌ يتنزَّي
وحنينٌ لم أشْفِ بعضَ هُيامه

ودَمى من هواكِ لحن يُسدوِّي
فى ضميري ، والروحُ من إسلامه
وبيـانى لا يستطيع بيـانى
غيرَ رمْزٍ إلى معـانى غرامـه

أي حب هذا الذي يعتلج فى قلب شاعرنا الحسينى وتجيش به نفسه ، ويزحم به القدامى والمحدثين ممن نظموا فى حب الأوطان والحنين إليها ، وتعلقوا بأرضها وذكرياتها وذويها ، إنها فى الواقع أبيات تنيض بالحيوية والصدق ، وتعبر عن الشعور بالمسئولية الحرة الواثقة ، ورغم ما حرص شاعرنا على إيداعه من حب زاخرٍ لوطنه فى هذه الأبيات فإنه يقر بأن بيانه عاجز عن الإعراب تماما عما فى نفسه ، وأنّ ما ذكره لم يكن سوى رمز صغير وإشارة عابرة بعيدة إلى معانى حبه وغرامه بوطنه الحبيب .

وبيـانى لا يستطيع بيـانى
غيرَ رمزٍ إلى معـانى غرامـه

وفى المجموعة الأخيرة من الديوان نقرأ للشاعر قصائد عاطفية ، فيها رقة وسلاسة وبساطة ، وانسياب يشبه انسياب الجدول الرقراق وانديا ح النسيم الرُّخاء ، ولنستمع إليه فى قصيدة له بعنوان « أشواق » :

حلمُ الأمسِ القريبِ أين ولّى يا حبيبى
التناجى والتشاكى من غريبٍ لغريب
وبعينىَّ وعينَيْك أساطيرُ الغروب
يا حبيبى أتُراها فى الهوى كلّ نصيبى
الروابى الخُضْرُ عادت برُؤاها من جديد
والربيعُ الحُلو يهفو بأمانىِّ الوجودِ
والهوى والذكرياتُ هتفتْ بى من بعيد
يا حبيبى أفلا نرجعُ للماضى السعيد
الضفافُ الخُضْرُ حَيْرىَ سألت عنك وعنّى
ومجاليها على العهدِ فما عهدُكَ منى ؟
ها هنا كنا التقينا وهنا رحنا نُغنّى
يا حبيبى فاضتِ الأشواقُ للماضى فَعُدْنى

ويهمنا فى ختام هذه الإلمامة أن ننوه بهذا الديوان اليتيم لشاعرنا الحسينى ، وقد كنا ننتظر منه أن يتبعه بدواوين أخرى أو يتابع نشاطه الشعري على صفحات الصحف والمجلات كما كان يفعل فى فجر شبابه ولكنه لم يفعل واكتفى بإعادة طبع ديوانه عدة مرات ، ونحن نطالبه هنا أن ينشر بقية أشعاره فهل يفعل ...؟

محمد فهد العيسى

على ذراع السكينة وبين أحضان الرمال الممتدة الكثبان تربض مدينة من أعرق مدن جزيرتنا الحبيبة فى القصيم ، تحمل معها تالدا ركينا حافلا، وتعيش اليوم حاضرا رائعا فوّفت جنباته يدٌ صَناع من واقع حضارتنا اليوم ، تلكم هى مدينة عنيزة . ففيها ولد شاعرنا الأُستاذ محمد فهد العيسى شاعر الأَلم والدموع عام ١٣٤٣ هـ ، وفيها قضى فترة طفولته الأُولى . ثم حظيت أُسرته بالهجرة إلى المدينة المنورة ، حيث تلقى الشاعر دراسته وتفتحت شاعريته ، ثم اقتضت حياته الوظيفية الانتقال منها حسب الظروف والأَحوال .

وكثيرا ما كان ينشر تحت اسم مستعار ، إما لظروف خاصة أو تقليدا لما كان عليه بعض الشعراء فى العالم العربى آنذاك ، مثل بدوي الجبل ، والبدوي الملثم وأدونيس والأَخطل الصغير وغيرهم .

الذي نعلمه هو أنه كان ينشر قصائده باسم (الفهد التائه) وهو اسم يحمل فى طواياه الأَلم وينز بالدموع كما ترى ، فأَي شيء أدعى للأَلم وأَجلب للدموع من التيه والضياع ، وهو رجل يلتذ بضياعه ويستمتع فى تيهه .

كتب الأُستاذ الشاعر محمد حسن عواد قصيدة فى جريدة البلاد وجهها إلى شاعرنا محمد فهد العيسى ، بعنوان (إلى الفهد التائه) وقعها باسم النسر المهتدي ، فما كانْ منه إلا أَن أهدى إليه بدوره قصيدة نشرها فى جريدة اليمامة منها :

حيـاةُ المتاهـة يا صاحـبي
أعزُّ عليَّ . . فَلِمْ تُسـرف ؟
ففيها ألاق شـذا الأُقحـوانِ
نديا على غصنـه الأَهْيف
نقيًا ، رطيبـا ، ولما يُدنَّس
من كف لاحٍ ولم يُقْطَف

وفيهـا أُرجِّـعُ للضـاريات

الأغاني العِـذابَ على مِعْزفِي

وأَمْرح نشـوانَ من رفـرَفٍ

بظلِّ الوحـوشِ إلى رفرف

أَعيش هنـاك بأَحراشهـا

وأُفْضي إليهـا بسرّي الخفي

* * *

بلوت الحيـاة بدنيا الأُناسي

وذُقْت الجحـودَ ولم أَسْلَم

فأَي الحيـاة : الإِسارُ أَعـزُّ

أَمِ الانطـلاقُ مع الضَّيغم ؟

بهذه الروح المتأَلمة الباكية يواجه الناس والأَشياء ، فكل أشعاره تقطر أَلما وحزنا وكآبة ، تواجهك هذه الحقيقة فى كل قصيدة من قصائد ديوانه (على مشارف الطريق) الذي نشره عام ١٩٦٣ م ، وأول قصيدة فيه هى بعنوان (غريب) وفيها يقول :

فؤادي تصبَّرْ ولُذْ بالحـــذَرْ
فأنتَ وحيــدٌ بدنيا البشَرْ
وأنت وحيــدٌ بكَوْنِ النفـــاقِ
بدنيـا الرياء ، بأرضِ الكَدَرْ
شدوْتَ بلحـنِ الهـوي شـاعرا
تناجى النجـومَ وتهـوَى القمر
فقـالوا : شـقىٌّ بـه جِنّـةٌ
يرى النورَ حيث الظلام انتشر
وتهتِفُ للحبِّ فى نشـــوةٍ
فقالوا : (ضليل) وقالوا : كَفَرْ
وقالوا : غويٌّ رمى المحصنـاتِ
وراء الخـدور ولم يَسْتَـــتر

إنه بالأبيات السابقة يضع أيدينا على مصدر من أزخر مصادر ضيقه وألمه ، ويكشف لنا عن بعض جوانب نفسه الرحبة الواسعة ، تلك النفس التى تمتلئ بالتطلع والطموح ، وتؤمن بحرية الفنان ، وترفض كل قيد

أو وصاية عليه ، حتى يمكن له أن يبتكر ويبدع ، وأن يؤدي وظيفته الأساسية فى الحياة ، ولكنه وجد المجتمع من حوله لا يكاد يدرك من مشاعره شيئا ، كما ألفاه يخلط بين وظيفة الشاعر والواعظ ، ففاضت نفسه بالألم ، وأحس بأنه شخص يعيش غريبا بين أهله وأفراد مجتمعه ، وهى غربة بلا شك قاسية وأليمة ، ولعل هذا يفسر لنا سر لجوئه إلى توقيع قصائده باسم مستعار كما ذكرنا قبل قليل ، ويدافع العيسى عن نفسه ويشرح للناس وجهة نظره فيقول :

ومن ذا أكونُ سوى شاعرٍ
ينــاغِى النسيمَ ، يناجى الزَّهَرْ
ويحنو علىَّ الظلامُ الطويلُ
وفيـه العـزاءُ وفيـه الخطر
فأُرْسِلُ فيـه أغانى الجمـالِ
وأسكُبُ فيـه لـظىً يستعـر

وأغفـو وحيـدًا إلى عطفـه
أناديَ الحبيبَ الذي قد هجر

فطورا أغنّي ، وحِينًا أبُوح
ببأسِ الحياة ، وبأس الغِيَر

وأشكو إليه الجمالَ المُدِلّ
وبُعْدَ الحبيب وظلْمَ البشر

وكم قد بكيتُ وقيثـارتي
حطامٌ وقلبي عليها انكسر

ولكنْ همُ النـاسُ يا خافقي
لهم ولع بالأذى والأَشَر

شكوتُ ، فقالوا : ضعيفٌ مُبينٌ
صبَرْتُ ، فقالوا : لماذا اصطبر ؟

فوا رحمةً لك يا خافقي
ويا لوعةً منِ ضلال البشر

وأول ما يبدو لك فى الديوان روح التجديد الذي اتسم به شعر العيسي ، وبدت واضحة فيه ، فهو يميل إلى التنويع فى موسيقى القصيدة ، وذلك عن طريق المراوحة بين القوافى والتصرف فى توزيع التفعيلات بشكل منتظم .

هو يصنع نمطه ، ثم يلتزمه فى كل القصيدة ، وذلك كما فعل فى قصيدته (ذكريات) التى منها :

فى رحاب الهـــرَمْ　　كم سهِرْنا ليـــالْ ...
بين حلْوِ النغَـــم　　والهـــوى والجمال
فاحفــظى يا نعَـــم
عهْــدَنا والقَسَم
فى رحاب الهــرَم
واذكري أمسيّاتِ اللقاء هناك على المنحــدَرْ
واذكري أغنيات الربيعِ وحبّى ونجْوَى السَّمر

والأماني العذابَ وأحلامَنا والهــوى المُخْتَصَــر

في ليــالي السمَرْ

تحت ضوء القمر

في رحاب الهــرَمْ

ويبدو أن تجاربه في عالم الحب كانت كثيراً ما تخلف وراءها ما يمكن أن نعده مصدرا آخر من مصادر هذا الألم الذي يشيع في شعره ، ويغلف روحه فيملؤها نشيجا يقطع النياط ويدمى القلوب . اسمعه في نهاية قصيدة له بعنوان (أحلام) :

ولّت الأحلام تجري   وانطوَتْ بين الغيوبِ
لم يكد يُشرِق فجري   يوم حيّاني غــروبي
أين يا حلْمُ شبـــابي   أين يا طيفُ حبيـبي
ضاع يا قلبي دعــائي   ضاع يا قلبُ نصيبي
ربّي رحماك بهذا القلب   رُحْــمَى بالغــريب
بالفــؤاد المدنَفِ الحيْ   ران من بيــن القلوب

هائمٌ بالحب قلبي قبل أن أعدو فطامي
ولظى الأشواق يسري في عروق وعظامي

وكل شعر العيسى يدل على أن تأثره بالثقافات الوافدة كان أقوى من تأثره بالتراث ، فما وراء الغيوب ؛ والضلال بين الدروب ؛ وذهابه وحده دون عودة ؛ والقلب الدامى ؛ والعزف للقبر ؛ ونحوهاتعبيرات جديدة ورثها الشاعر من قراءاته وعلاقته بالشعر الحديث فى المهجر والبلاد العربية ، ورغم أنه استغل عناصر الطبيعة فى بث شكواه ، كالشذا والطيور والأشجار والورود والندى والرياض وغيرها ، إلا أن اتصاله بها كان اتصالا سطحيا ، ولم يتعمقها ويجوس ثناياها ، بحيث يستنطقها ويفلسف أوضاعها واشكالها ،ويستخلص على لسانها الحكم ، ويستكشف أسرار الكون والحياة .

وفى قصيدة له بعنوان (فى الطريق) يقول :

حبيبي أرانيَ عبْرَ الطريقِ
أسيرُ إلى ما وراء الغيوب

أسير إلى عالمٍ للفنـاء
وحيدا تحيط بنفسي النّدوب
حطاما ، فقدّ هد منّي هواكَ
صروحًا تحديْتُ فيهاالخطوب
هواك شقاءٌ بدنيا شقـاء
أضلّ طريقيَ بين السدروب
ولي هينماتٌ وعاها الزمانُ
بحبك مسّت شغافَ القلوب
وأنت نَعَمْ .. أنتَ .. يالَلشقاء
حطَمْتَ فؤادي .. بوعْدٍ كَذوب
بعيدا بعيدا وراء الغيوبِ
سأذهب وحدي ولا لَنْ أعود
وروحي ستبقى ترتّل بَعْدُ
ابتهالاتِ قلبي الجريحِ العميد
ستبقى برغم الزمان العنيدِ
ستبقى تحطِّمُ باقي القيود

إن الألفاظ تكتسب بين أنامل شاعرنا العيسى صفات كثيرة ، لم تكن لها وهى بعيدة عن متناوله ، فبلمسة الفنان يباركها ويورثها الرقة والسلاسة والتأثير ، حتى تتحول إلى نغمة فى لحن سمفونية جميل . هو شاعر رقيق الألفاظ قوي العاطفة ، يجعلك تؤمن بصدق تجربته وتعايشها وتشترك فيها دون عناءٍ ، اسمعْ إليه يرثى ولده أحمد الذي توفى طفلا فى عمر الزهور :

ابنى طويتُــكَ خائفــا بيــن الجــوانح والضلوع
ابنى .. ونادى الموت ــصائحه ــ بأن تُطْفى الشموع
ابنى . . بكيتُك بالدماءِ الســافحات مع الدموع
فبكيتُ أحــلامى وآمالى وأنفــاسًا تضــوع

• • •

ابنى ..! أتتركنى وحيدا بين عطْفــاتِ الدروب ..؟
وتلُوذُ بالملكوتِ تمــرحُ بين طيّــات الغيوب
آهٍ . أتهدأ . ؟ أم ستبحث باكيا عند الغروب ..؟
عنىّ وأنت مع الملائك فى سمــاوات تجــوب

ما أروع هـذا النداء المتكرر لابنـه ، وهذه الاستفهامات المتوالية التى لا يترقب لها جوابا ، وإنما يتخذ منها ذريعة لبثّ أحزانه وسفح دموعه وإرسال آهاته الدامية ، إنّه ألم لا يحس به ولا يقدّره إلا من عانى عاطفة الأبوة وكابد دموع الثكل والحرمان .

سلوا عنها ابن الرومى حين رثى ولده وقال :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يُجْدِي
فجودا فقد أودي نظيرُ كما عندي

توخّي حمامُ الموتِ أوسطَ صِبْيَتي
فلله كيفَ اختارَ واسطةَ العِقْد

وسلوا عنها ابن عبد ربه فِي الأندلس ، وسلوا عنها فى العصر الحديث أحمد حسن الزيات فى مصر . وقبل ذلك كله سلوا عنها النبي يعقوب عليه السلام حين فقد ابنه يوسف الصديق ، وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم . يقول العيسى :

قد كنتَ ملْءَ يدي وقلبي ملْءَ آماق العيــون
فتخطفتْك من القــلوبِ الوالهاتِ يدُ المنــونْ
ابني .. ذهبتَ فهل تعود ..؟ أنلتقي ..؟ ومتى يكون .؟
آهٍ . . عليّ . . على أبٍ ذهبتْ تُلوعــه السنــون

ثم يسترجع الشاعر بكل ولهٍ وأسى بعض ذكرياته مع ابنه الذي اغتاله الموت القاسي فيقول :

أينَ النــداءُ الوادعُ المشبــوب واللحــنُ الجميــلْ
وهتــافك المعســولُ ـ بابا ـ لهفــةً عند الأصيل
متعثِّر الخطــواتِ تمــرح ما عرفْــتَ المستحيــلْ
ابْني . . وهبتُك للإلــه ولذْتُ بالصبــر الجميل

إنها عواطف والد تنثال على شفتيه بكاءً مرا ، وتنداح من آماقه دموعا ملتهبة ، ولعل لذلك صلة بجعله حرف الرويّ مسبوقا بالواو أو الياء ليعطيه امتداد الصوت فرصةً للتنفيس عما يثقل قلبه من ألمٍ ، وما يبهظ كاهله من حزن شديد .

إن الموت انتصب لشاعرنا ماردا جبارا يسد عليه دروبه ويفسد عليه بعض جوانب حياته منذ اغتال ولده من بين يديه ، ففى قصيدة له بعنوان (لحن الموت) يقـــول :

أين يا حفّارُ قبـري ... هو من تلك القبـور ؟
أَهْوَ فى أفيـــاء دوحٍ ... أم تُرَى بين الصخور
لبكنْ فى بطـــن وادٍ ... حـوله ماءُ غـــدير
حـوله أغصانُ أَيْكٍ ... فوقها تـشدو الطيور
فتغـنّى لىَ لحنـــا ... كان في الدنيا أثيــر
كان فى الروض عبيرا ... وورودا وزهـــور
وحبيبي لسـتُ أدري ... هل درىَ سوءَ المصيـر؟
ليتـه يحضر دفْـنى ... فهْوَ لى طهرٌ ونُـــور
ليتـه يرحمُ قلـبي ... بعد ما تُطْوَى السطـور
فعسى تهـــدأُ نفسى ... وهْىَ فى الرمْس الحقير

ولا يستطيع العيسى أن يتخلص من رنة الألم والأسى والدموع حتى فى أكثر المواقف بهجة وسرورا ،

فهو الحلم الضائع والأمل المتلاشى ، والحائر الذي ضل الطريق ، واليأس الذي سئم العيش وعاف الحياة :

أنا من ترى فى هـذه الدنيا ؟ وماذا ؟ ما أكون ؟
أنا وهمُ أحلام وآمالٍ تلاشتْ فى سكـون
أنا لستُ أعرف من أنا . . يا قومُ هلاّ تعرفون
أنا حيْرةٌ ضلّتْ سبيل الرُّشد تسعى فى جنون

• • •

لا هُمَّ خذ بيدي إليك فقد يئسْتُ من النجاة
خذنى إليكَ فقد سئمت العيشَ فى هَذي الحياه

• • •

أنا للشقاء وللجحيم وللبلاء وللسّقام
أنا للصدودِ وللتفجُّع والتولّه والهُيام

• • •

وحطمت كأسى فى يديَّ وما شربْتُ سوى الدموع
وهدمتُ نفسى والحشاشة أحرِقَتْ بين الضلوع

ولنستمع إليه فى قصيدة له بعنوان (الوداع) متأثرا فيها بالشاعر التونسى أبى القاسم الشابيّ فى قصيدة له تحمل العنوان نفسه ، وتتخذ الوزن نفسه ، وتسير فى اتجاه مشابه إلى حد كبير . فيقول :

الـــوداعَ الـــوداعْ يا ســلامَ القــلوبْ
قلَّ قلبي الصـــراعْ وطــوتْه الخطــوبْ
وتــوارى الشّــراع .. فى زوايا الغيــوب
فيـــه قلبٌ مُــراعْ مثخَـنٌ بالنــدوب
ليس يبـغى ارتجاعْ
فالــوداع الــوداعْ
فى ربيـع الشبـــابْ افتقــدتُ الربيـــعْ
وأرقتُ الشـــــراب وشربْتُ النجيــــع
وحطمْــتُ الرّبــابْ فــوق قلبي الصـريع
وارِنى يا تــــرابْ قد سئمتُ الجميـع
وضللــتُ الصــراع
فالــوداع الــوداع

وكغيره من شعراء عصره يقع فى بعض الهفوات اللغوية السائدة ، كاستعماله أغنية والأمانى والأمسية والأتون بالتخفيف بدلا من أُغنيّة وأَمانىّ وأُمسيّة وأَتوّن بالتضعيف ، وكجمعه أمل على أمال بدون أن يمد الهمزة ، مع أن الصواب مدها لتصبح على وزن أفعال ، كقفل وأقفال وقلم وأقلام . ويحلو لنا أن نختم هذه الحلقة بالإشارة إلى قصيدة له من شعر التفعيلة بعنوان (الطبيعة الخرساءُ) فيها كثير من الجوانب الرمزية ومنها :

آهِ يا صحــراءُ لو تتحــدّثين
وتُنبّئيـــن . .
عما وراءَ الصمْتِ من سرّ دفين
فلقد مضى عهـــدٌ طــويل
جــدًّا طــويل . . .
وأنتِ يا صحــراءُ لا تتكلمين
خرســاءُ . . . ؟
أم أخرِسْتِ من جذْبِ السنين

وتعاقبتْ تجتاحُ موطنكِ الأمينْ
وتشـدُّ غيثَكِ أن يليـن . . .

وبعد فإن محمد فهد العيسى من شعرائنا الذين نعتز بهم ، ولا نزال نعقد عليهم الآمال الكبار ، وإن كان لنا أُمنية نزجيها فى هذه المناسبة فهى أن يتزحزح شاعرنا قليلاً عن ذاتيته ، ويلتحم بمجتمعه على نطاق أوسع ، وأن يعود لقرائه وعشاق فنه ، ويخرج من من عزلته التى طال عليها الزمان ولفها جلباب العمل الوظيفى بدثار من الاعراض والبعاد .

طاهر زمخشري

إن الجيل الذي واكبت طفولتُه أيامَ تأْسيس الإذاعة السعودية وانطلاقاتها بالبرامج المختلفة ، يعرفون هذا الشاعر تمام المعرفة ، ولا يمكن أن يمحّى اسمه الإذاعى (بابا طاهر) من ذاكرتهم ، إنه الشاعر المعروف طاهر زمخشري . فقد كان يقدم آنذاك ركن الأَطفال ويغذيه بأَناشيده الحلوة وفكاهاته الخفيفة التى لا يلبث الأَطفال أَن يحفظوها ويتناقلوها . . فإن فاتتك هذه المرحلة وكنتَ من هواة الفن الغنائى فستسمع شعره الرقيق يغنيه طارق عبد الحكيم وغازي على وغيرهما ، وستحس أَنه مؤلف أَغان من الدرجة الأُولى ، لما فى شعره ذاك من سلاسة ورقة وارتباط بالمشاعر الحية والقلوب العامرة بالحب والوفاء . . أَما إذا كنت من هواة الشعر والأَدب ، أَو من رفاق المهنة فستكون بلا شك قد قرأْت دواوينه العديدة التى منها : أَحلام الربيع ـ همسات ـ أَنفاس الربيع ـ أَغاريد الصحراء ـ

على الضفاف – ألحان مغترب – عودة الغريب – وصبا نجد ، وغيرها . ولا تستغربن كثرة عدد هذه الدواوين فشاعرنا طاهر زمخشري ليس صغير السن على كل حال ، فهو من مواليد مكة المكرمة عام ١٣٣٢ هـ والذي لايختلف فيه أثنان هو أن شعره لا يزال شابا قويا لم تزده السنون إلا ثباتا ورسوخا وقوة واعتدالا .

وتصادفنا فى دراسة شعر طاهر زمخشري عدة حقائق أو ظاهرات يمكن تسجيلها بيسر وسهولة :

منها هذه الصبغة الحزينة التى يصطبغ بها شعره ولا يكاد يتخلص منها حتى فى أكثر المناسبات إسعادا وإبهاجا .

ومنها شدة ارتباطه بوطنه وبالمقدسات الإسلامية والتراث الإسلامى عموما .

ومنها إيمانه المطلق بالقدر والتسليم بقضائه ، وكثرة إنابته إلى الله .

ومن دواوينه التي فى متناولى ديوانه : « على الضفاف»
وقد كتب إهداءه على النحو التالى : . . إلى شباب
بلادي . . إلى أولئك الذين صادقتهم أطفالا ،
فصادقونى شبابا يعتز بالقوة ويتدفق بالحياة . . أهدي
هذا الديوان . ثم وجه فيه كلمة إلى ابنه فؤاد الذي
كان آنذاك يدرس الطب فى الإسكندرية . وكان أن
سبق إنشاء قصائد هذا الديوان رحلة استشفائية للشاعر
فى مصر ، رجع منها بحمد الله سليما معافى . والقصيدة
الثانية فى هذا الديوان بعنوان (موطنى) يقول فيها :

موطني لا تزالُ تُلهم قيثاري فينسابُ بالفؤاد نشيدا
يتهادى به الحنين فيَجْري باشتياق على المآقى عقودا
والقداساتُ فى مرابعك البيضِ حسانٌ ، بها أهيمُ عميد
وعليها من المحارم لألاءٌ ترامَى على مداها فريدا
تتناغى بها المشاعرُ فى (الخَيْفِ) ويمشى بها الزمانُ بنودا
وجلالُ الخلود فى رحبك الطاهر روضٌ زكا فطابَ ورُودا

ويسترسل الشاعر فى تصوير مشاعر البعد والغربة وتباريح الشوق إلى الوطن الحبيب مهبط الرسالة وموئل القداسات ، إلى أن يقول :

ومن الخلد فى ثراه أفانينُ جمالٍ تزيده تمجيدا
فهو مهدُ الهدي ومبعث إشراقٍ قد أجتازَ فى الحياة الحدودا
أنا فى حبه سكبتُ أغاريدي فكانت على اشتياق شهودا
فإذا شِخْتُ من تزاحُم ِ آلامى ، فحبي إليه يحبو وليدا
وسينمو كما نَمَتْ فى مغانيه قلوبٌ أثابها التخليدا

ولنسمع معًا رنّة الحزن المشبعة بالألم العاتى ، الذي كاد يزعزع كيانه ويفقده صوابه لولا لطف الله به وإنعامه عليه . . يقول وهو على ضفاف النيل :

أنا فى هذه المجالى غريبٌ
تتلاقَى لدي خطاه الأمور
شتّتتْه ومزقتْه المقادير
وألطافُها حواليْه سُور

وتصاريفُها تُقيِّد خطوِي
أَين يمّمتُ فى مكانى أدور
كلما أرهف التوجُّع حسى
أسعفتْنى وجاذبتْنى البحور

ويبدو أن شاعرنا تعرض لجفوة بعض أصدقائه أو من كان يعقد عليهم بعض آماله ، وتنكروا له ولم يلقوه بما يجدر أن يلقى به الصديق صديقه والأخ أخاه ، ولكنه ظلّ مع ذلك يؤكد استمراره على الوفاء لهم رغم جحودهم ، وهذه صورة من أعلى صور الكرم النفسى فى العلاقات الإنسانية الراشدة . . يقول :

(أريد حياته ويريد قتلى)
على أنى النبيل بما أريد
سأمنحُه الوفاء على جحود
لأنى بالسماح به أسُود
وأكرِمه وأغمره بعطفى
وإن أبدَي الإساءة أستزيد

وحسبي أني أرضيتُ نفسي

بما يُبْنَى به المجدُ التليد

وحسبي أن لى فى الله عونا

ولى من فيضه الهامى بُرود

وخيرُ الجود بين الناس ودٌّ

وأكرَمُ من يصافحُك الوَدود

وفى البيت الثالث يبدو أنه أراد : (وإن أبدي الإساءة لى أزيد) أي يزيد فى إكرامه له وعطفه عليه . ولكنه قال : استزيد ، والسين والتاء للطلب غالبا وهو المتبادر هنا ، فصار المعنى أنه يطلب زيادة الإساءة ، وهو معنى نستبعد أن يكون قصده الشاعر . ونلاحظ أيضا فى البيت الأول أنه اشتمل على تضمين الشطر الأول من البيت الشهير :

أريد حياته ويريد قتلى

وتلك سجيّةُ الطبْعِ اللئيم

والشاعر طاهر زمخشري شديد الحب للناس . . يحبهم جميعا ويسعهم بقلبه الكبير ، لا يضمر لأي واحد منهم كراهية أو عداءا ، حتى ولو كانوا من أعدائه ، وهذا نوع من التسامح لا يوجد إلا فى النفوس الكبيرة التى سمت مشاعرها وترفعت إلى درجة عالية من السمو النفسى والصفاء الروحى . وهذه النزعة نجدها عند الشاعر إيليا أبى ماضى فهو : كالزهر ينفح بالشذا حتى أنوف السارقيه يقول شاعرنا طاهر زمخشري بعنوان (حسبي) :

حسبي من الدهر أنّى كلّما انتفضت
حولى الهمومُ أداريها بأغواري
وأستريح إلى نجوىً مغردةٍ
تُزْجى المباهجَ فى أصداء قيثاري
فأُرسلُ القلبَ حباتٍ مبعثرةٍ
كيما تجمّعُها فى الشجْو أشعاري

وفى الجفون الدوامى فيضُ لاهِبَةٍ
أُوارُها صارِخ فى رجْع أوتــاري

حسبُ العُداةِ بأنى ما ضمرتُ لهم
سوءًا وقد حملوا بالسوءِ أوزاري

لكنْ درعى سماحٌ ليس تَثلِمُــه
مضــاربٌ رعشَتْ فى كف خــوار

إذا رمانى بما يُقْذِي ابتسمتُ لــه
فارتدّ أعشى إلى مثــواه فى النار

نارُ العداوة والبغضاءِ ما اضطــرمَتْ
إلا لتقْــذفَ مُذْكيها بأضــرار

حسبِي من الصحب أنى فى ضمائرهمْ
أصْفَى من الضوءِ فى إشعاع تيّار

إذا ذُكِرتُ أتانى الرجعُ مبتهجا
لما استعادوا مع السُّمّار أخبــاري

وما طربْتُ لذكري فى مجالسهمْ

لكن رضا الصَّحبِ عندي خيرُ أوطاري

وهو شديد التخوف من المستقبل كثير البكاء لآلامه وأوجاعه ، لعله يجد فى الإفصاح عنها متنفَّسا أو ملجأً وملاذا ، فهو يقول فى قصيدة له بعنوان (مغرب العام) .

مغربَ العامِ لو تريَّثتَ حتى

اسألَ العمْر : أين ضاع شبابُهْ ؟

ثم أمهلتنى لأسألَ دهري

هل ستبقى لشقوتى أوصابه

وتوقّفتُ فالليالى الدواجى

فى مداها لاح الردي وغرابُه

كلما شعَّ للأمانى وميضٌ

فى حياتى أقْذَي عيونى سرابُه

أتلوَّي على وسادي من الأيْنِ

أعانى ما لا يطاق غلابُه

وبرغم الشجـون أرتقبُ الفَجْرَ

وأرجو أنْ لو يُحَيِّي كِذابُـه

مغرب العام والثـوانى فَضَـاءٌ

مارَ فيه الأَسَى وثار عبـابُه

وشراعى الخفّاقُ كان على الموج

طـروبا تقـودُه آرابُـه

فاستبدت بهِ المخاوف فى الـيـ

ـمِّ فألقـاه للضـلال اضطرابُه

وشاعرنا الزمخشري من خريجى مدارس الفلاح بمكة ، وهى مدارس خليقة بأن ينوّه بخدماتها التعليمية الجليلة التى قدمتها لأبناء هذا البلد ، وأسهمت بها فى تكوين جيل من المتعلمين لا يزال أكثرهم يشترك فى الحياة العامة ، ويتولى مسئوليات كبيرة . وقد كتب شاعرنا قصيدة عصماء حيَّى فيها مؤسس تلك المدارس الشيخ محمد على زينل فقال :

تحييك فى بِيضِ الروابى أزاهيرُ

ويرقص فى أفوافها العطر والنُّور

وتلقاك منها فرحــةٌ أنتَ صغتَها

بيمناك ، والأرواحُ منا مزامير

وعَوْدك ميمون ، ومجدك سابقٌ

ومنهجك السامى كما شئتَ دستور

وقلتَ:فلاحٌ ،ردّدالدهر:دائما ،يباريه تهليلٌ ويحميه تكبير

نداءٌ وما أحــلاه من كل مؤمن

صدَى رجْعِه ذكرٌ حميد وتقدير

وعشت لتبنى سوف تحيا على المدى أحاديثَ ،والأمجادُ فيها تعابير

فبُورِك ما أعلاه فى خير موطن

من المجد ، والبانى الموفَّقُ مأجور

فعش فى حمانا رائدا دام يُمْنُه

مدى الدهر،والذكر المعطَّرُ منشور

ونحن الجَنَى مازال يشدو مردِّدا:

جهادُك مبرور ، وسعْيُك مشكور

ولم ينس شاعرنا قلبه رغم الآلام المتراكمة ، بل غنّى للحب على قيثارته أنغاما شجية زاخرة بالصبابة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يتخلص من أحزانه وآلامه ، يقول بعنوان « مجلى الثريا » :

طافَ بِى الحبُّ فى رحابِ الثُّريّا
فترشّفستُ طلَّها العَبْهَـريا
وأنارَ الطريـقَ سحـرُ جمـال
ينشرُ النورَ فى المـدى عبقريا
هِمْت فيه ورحتُ أســأل نفسى
أَتُرَى يُسْعِـد اللقاءُ شقيا ؟
ذاق من لوعةِ الصبابة ألـوانًا
وعانى بها العـذابَ أبِيـا
من غبار السنين كحَّلَ جَفْنيه فأَ
غْضَى . . ولا يـزال فتيـا

وتلهّت به المـواجعُ لا يشكو ،
وتكويه فى الجـوانح كيـا
وعلى ناره ينـــوح معنّى
يحمل الحبّ طاهـرا قدسيا
وتعيدُ الصـدى إليه بقـايا
من فؤادٍ ما زال يخفـقِ حيا
كلما هـزه إليهـا حنيـنٌ
يتغنّى ، والرجعُ يَسْري نديا
نايُهُ آهـة الفـؤاد ومَسْراه
مغانى الصبـا ودارُ الثـريا

ولئن قرأنا فى القصائد التى أوردناها لحد الآن شعرا ذاتيا للزمخشري ، لا علاقة له بالمجتمع ، عدا حديثه عن مؤسس مدارس الفلاح ، فإن له شعرا آخر تحدث فيه عن المجتمع ، أو عن الوطن والوطنية ، ففى ديوانه « عودة الغريب » يقول بعنوان (نداءُ الوطن) :

سندعو إلى المجد أبطالَه
ونرفع فى النـاس أسْمَى علَمْ
فيهتف بالحـق أنصـارُه
يسيـرون فى موكب كالخضم
ونسمو صعـودا لغاياتنـا
ونزهـو بعزتنـا فى الأُمم
سنبْنى الحيـاةَ كما نشتهى
ونفْـدِي الديارَ بروح ودم
ونسحـق أهدافُنـا التّرهاتِ
وتقشعُ من حالكات الظلم
ويدفعنـا للكفـاح الطموحُ
وتنصرنا فى النضـال الشّيَم
يقود السفين بركب الحيـاة
صناديدُنا من حماة الحـرم

ونلاحظ أنه لا يوجد فى القصيدة أي أثر للتجديد بل هى خطابية صرفة تصلح للإنشاد أكثر من أي شيء آخر ، كما أنه لم يركز العواطف حول قضية وطنية معينة ، بل آثر التعميم . ولشاعرنا ولع بالرباعيات التي استمر مدة طويلة ينشرها تباعا فى بعض الصحف ، ومن ذلك رباعية بعنوان (رأي من الشعب) أهداها إلى الأديب السيد أحمد عبيد يقول فيها :

هكذا هكذا نريدُ البيـــــانا
معزفا يملأُ الدُّنَى ألحــانا

فانشُرِ الرأيَ عن عقيــدة شعْبٍ
ليس يرضى إلا العلاءَ مكانا

واليراعُ الجــريءُ رمزٌ لوْعى
عاد نارا أَتُّونُهــا فى دمانــا

فارسلِ الصوت فى الحياة جريئا
ناشدُ الحقِّ لا يكون جبانا

ويقول فى رباعية أخري :

حسبي من العمر أنى فى غضاضته

سكبتُ ذَوْب فؤادي فى أناشيدي

وكنت أحملُ آلامًا مبرّحةً

فصرت أُعْلِن أفراحى بتنهيدي

فما ترنَّمَ مطرابٌ بأُغنية

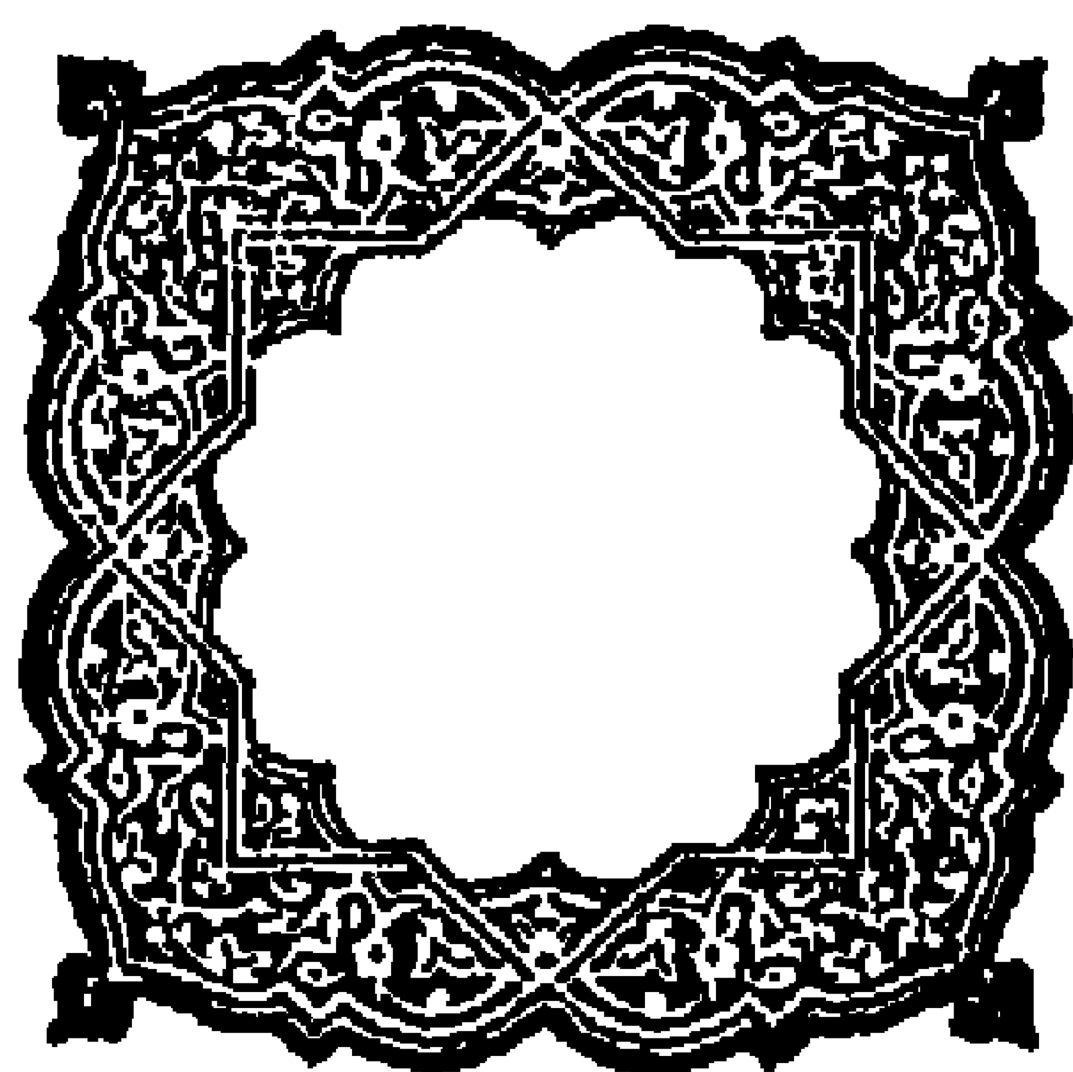
إلاّ وساجلَهُ شعري بتغريد

وفى يمينىَ آمالٌ مجنَّحة

نشوي أُطالع فى لألائها عيدي

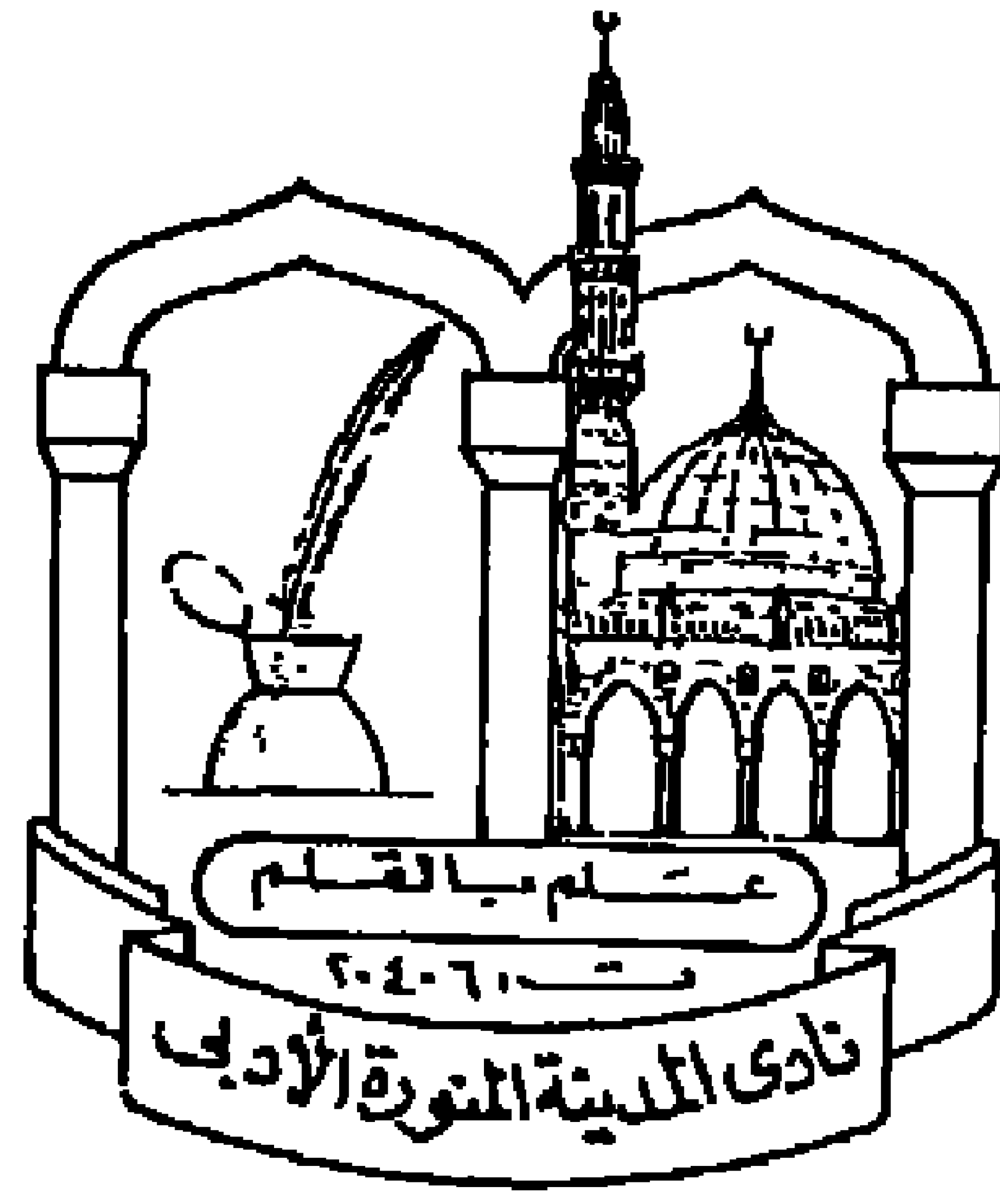
ولا يسعنا فى آخر هذه الكلمة إلا أن نشد على يد شاعرنا الزمخشري ونبارك فيه هذه الشاعرية الدافقة بالعطاء المستمر ، فهو فنان مخلص لفنه ، منقطع له بكل أحاسيسه ، يهب الفن فكره ووقته ، فيهبه الفن

عرائس الخلد والجمال ، ويسلس قياده على عذبات ريشته ، وينساب على سنان قلمه تغما ثريًا ، ولحنا غنيا بالعواطف الإنسانية الدافئة ، يأسو به الجروح الدامية والنفوس الكليمة ، ورغم أنه فى بعض قصائده يكرر نفسه فهو من شعرائنا المرموقين المعدودين .



محتوى الكتاب

دارالاصفهاني للطباعة ـ جدة


علم بالقلم
ت ٢٠٤٠٦١
نادي المدينة المنورة الأدبي

دار الاصفهانى للطباعة - جدة